اقرأ

عباس خضر

غرام الأدباء

دار المعارف بمصر

غرام الأدباء

فهرس الموضوعات

عبّاس خضر

غَرام الأُدَباء

اقرأ ١٥٧

دار المعارف بمصر

١٩٥٦ م

اقرأ ١٥٧ – يناير سنة ١٩٥٦



طه حسين

نعود إلى الفتى الحائر فى أيامه الأولى ، حينما كان يضطرب بين « كتّاب سيدنا » وبين المجتمع فى المدينة التى نشأ بها فى صعيد مصر ، نعود إليه لنلتمس نبضات قلبه إزاء الجنس الآخر . . . المرأة ! وقلب الفتى هو قلب فنان ولا شك ، عرفناه كذلك من أحاسيسه المرهفة ومشاعره الرقيقة التى حدثنا بها عن أيامه تلك فى كتابه « الأيام » ، ولا أريد أن أتتبع من تلك الأحاسيس والمشاعر إلا ما يمس موضوعنا : وهو حب أديبنا الكبير ، أو قل الآن : فتانا الصغير . وأعنى حبه للمرأة .

هذا هو الفتى يتقدم نحو طور اليفاعة ، وقد حفظ القرآن وأصبح له شأن فى « الكتّاب » بحيث يعهد إليه « سيدنا » بتحفيظ « عثمان » ابن المأمور الذى أتى به والده إلى الكتّاب ليحفظ القرآن تمهيداً لإلحاقه بالأزهر ، وصار فتانا صديقاً حميما لعثمان ولأخيه محمود ، يذهبان معه إلى منزله ، ويذهب معهما إلى منزلهما الأنيق الذى تتلوى على سوره فروع اللبلاب وتتصدره حديقة عريضة . . . يحدثنا فى قصة « أديب » أنه كان يقصد تلك الدار ، وليس همه عثمان ولا محمود ، فإذا

جلس فى حجرة الصبيين التى تتقدم البيت لا يلقى إلى صاحبيه إلا إحدى أذنيه ، أو بعض ما يستطيع أن يلقيه منهما ، فأما الأذن الأخرى فمرسلة داخل الدار ومعها نفسه كلها ، يريد أن يسمع صوت عزيزة وأمينة . . . أختى عثمان ومحمود ، ويعد نفسه أسعد الناس أن أتيح له الاستماع إلى الصوتين اللذين تشيع فيهما العذوبة كما تشيع النضرة فى الغصن المورق اللدن . فعزيزة فتاة ناهد تلعب مع الفتى ومع أخويها ، وقد يضحكها ما يخوضون فيه من الحديث ، فإذا ضحكها يضطرب فى الحجرة مشرقاً صافياً مضيئاً كأنه البلور . . . أما أمينة فقد نيفت على العشرين وجاوزت طور اللعب ، وقد عادت إلى أسرتها بعد أن طلقها زوجها حزينة هادئة الصوت ، ولكن صوتها الهادئ يثير فى قلب الفتى قلقاً لا يتبين أصله ولا سره ، وهو يخافه ويحبه معاً . وهو لا يدرى أى الصوتين أحب إليه ، لأنه يحب الصوتين جميعاً ويألف الأختين جميعاً ، ويحب أن ينعم بما تثيران فى نفسه من عواطف حادة مبهمة غامضة .

وهذا طيف آخر يحدثنا عنه فى الجزء الأول من « الأيام » عرض له حين هبط المدينة رجل مطربش يحفظ القرآن ويجوده ، ليتولى عمله فيها مفتشاً للطرق الزراعية ، وقد اتصل بوالد الفتى ، ثم عرض عليه أن يجود لابنه القرآن على طريقة حفص التى

تعلمها فى الأزهر قبل أن يلحق بمدرسة الفنون والصنائع .

قضى الفتى سنة كاملة يتردد على بيت المفتش ، يدفعه إليه حرصه على التجويد وإعجابه بالرجل ، ولكن هذا الدافع كان عمره شهرين ، استجدّ بعدهما دافع آخر كان يجذبه إلى بيت المفتش قبل الميعاد ليظفر بساعة أو بعض ساعة يتحدث فيها إلى فتاة لم تبلغ السادسة عشرة تزوجها المفتش وقد جاوزت سنه الأربعين . أخذت الفتاة تتحدث إليه وتسأله عن نفسه وعن أمه وعن إخوته وعن داره ، وأخذ الفتى يجيبها مستحيياً ، ثم متبسطاً ، واتصلت بينهما مودة ساذجة كانت حلوة فى نفسه لذيذة الوقع فى قلبه . وكانا يتحدثان ، ثم يستحيل الحديث إلى لعب كلعب الصبيان لا أكثر ولا أقل ، ولكنه كان لعباً لذيذاً ، ولا بد أن الفتى قد حمد لأمه أن سعت فى التعرف إلى هذه الفتاة بعد أن قص عليها أمرها ، ودعتها إلى البيت كى تذهب عنها الوحشة التى تجدها طفلة زوجت من شيخ لا تعرف أحداً ولا يعرفها أحد فى المدينة .

وبعد ذلك يرحل الفتى إلى القاهرة حيث يطلب العلم فى الجامع الأزهر مقبلا عليه فى أول الأمر ، ثم ضائقاً به عند ما تنشأ الجامعة المصرية ويسرع إليها ويجد فيها ألواناً وآفاقاً أخرى من العلم والأدب . وهو بين هذا وذاك مجد فى

الدرس والتحصيل . ويعرض له فى خلال ذلك طيف من نوع آخر ، هو طيف خنشور . . . ولكنه يملكه ويستأثر به فلا يسمح لأى طيف لطيف أن يطرق باب قلبه .

ذلك هو أبو العلاء المعرى الذى أعرض عن المرأة وكرس جهده للدرس والتأمل والأدب . وأعلن أنه لن يقتفى أثر أبيه فيجنى على ولد يخلفه فى هذه الحياة . وتأثر صاحبنا كل التأثر بشيخ المعرة وحزم أمره على أن يكون كأستاذه فيكرس كل جهده للدرس والتحصيل والعلم والتعليم .

ولكن طبيعة طه حسين تختلف — فيما أرى — عن طبيعة أبى العلاء كل الاختلاف . اشتبهت الظروف الخارجية بينهما ، فأخذ طه حسين نفسه بمثل ما أخذ به المعرى نفسه ، إذ اضطره إلى ذلك إحساسه المرهف ، واستبدت به العدوى من معاشرته فى دراسته وتعمق أطواره ، فاعتنق رأيه وربط بينه وبينه برباط خُيِّل إليه أنه صالح له ، ولكن طه حسين فى حقيقة نفسه لا يميل إلى العزلة ولا يحب الانقباض ، كما كان يميل ويحب أبو العلاء ، وإنما هو رجل اجتماعى يحب صحبة الناس ومشاركتهم فيما يحبه ويرضاه ، ولست أستدل على ذلك بما آل إليه بعد ذلك من تبدل سأصل إليه فى هذا المقال ، ولكن الدليل هو نفس ما كان عليه فى علاقاته وتنقلاته وهو

على تلك الحال الأولى . ويحتاج ذلك إلى كلام كثير لا أريد أن يصرفنا عما نحن بصدده الآن من موضوع الحب .

ولذلك أستقيم على الطريق باحثاً عن الأطياف الأولى التى عرضت فى حب أديبنا الكبير ولا أزعم أننى أستقصيها كلها ، وإنما أتحدث عما وصل إليه اجتهادى فى البحث عنها .

هذا طيف رابع . . . هو « فرنند » الخادم الحسناء فى « فندق جنيف » بمرسيليا لا أريد أن أفترى على أديبنا أنه لقيها أو تحدث إليها ، وإنما حدثه عنها صديقه بطل قصة « أديب » فى رسائل بعث بها إليه من مرسيليا ، وقد افتن صديقه فى وصف حديثها وابتسامتها وجمالها ورشاقتها وخفة روحها حتى قال عنها فيما قال : « ومضت مسرعة لا تمشى على الأرض وإنما تمشى فى الهواء » ، وكان أديبنا الشاب المجد يرجو أن يتاح له ما أتيح لصديقه فيعبر البحر كما عبره ، فكان يريد أن يذهب إلى باريس كما ذهب أبو العلاء إلى بغداد ، ثم يعود كما عاد ، فيعكف كما عكف ، فلما قرأ رسالة صديقه خطر له أنه قد يمر بمرسيليا فعزم على أن يجتنب المقام فيها إلا ريثما يحمله القطار إلى باريس حتى لا يعرج على فندق جنيف الذى تعمل فيه « فرنند » .

ولكن . . . ليسمح لنا أستاذنا الكبير أن نتنحنح

قليلا . . . إذ نراه – عند سفره وفى غفلة من أبى العلاء – يستأنى بمرسيليا ويعرج على فندق « جنيف » ، لعله يلقى هناك « فرنند » ولكن الطيف الذى لا يمشى على الأرض كان قد طار فى الهواء . . .

وما أظننى بحاجة إلى أن أقول إن هذا الطيف الرابع كان خياليًّا بحتاً ، فهو لم يعرض للأديب الشاب إلا مذكوراً أو موصوفاً فى رسالة ، وإن كان الشاب نفسه حاول أن يمر به . . . أما الأطياف الثلاثة الأولى فقد كان شأنه معها كلعب الصبيان ، ولكن الفتيات الثلاث كن يحدثن فى نفسه لذة وسروراً ، وكن يبعثن فيها قلقاً وعواطف حادة غامضة مبهمة . ولعل لضيقه بالبيئة وتطلعه إلى الجديد شأناً فى ذلك ، فقد كن جميعاً قاهرات ذوات مرح ، وفى حديثهن عذوبة ، وكان هذا كله شيئاً جذاباً أسره وخلب لبه ، ولكنه مر بسلام .

ولا أظنه فى القاهرة قد خلا من هذه الأطياف . ونحن نراه وقد صار كاتباً شاعراً . يكتب وينظم ، وتنشر له « الجريدة » و « مصر الفتاة » حوالى سنة ١٩١٠ – نراه يكتب فيما يكتب ، عن مسائل الحب ، ويدفع عن الحب المنكرين له ، ويكتب أنه يرتاد المسارح والملاهى ويستمع إلى المغنيات والممثلات فيعجب بهن .

وكان طه حسين ينظم الشعر فى مطلع حياته الأدبية ، ومن ذلك قصيدة غزلية عنوانها « ليت للحب قضاة » نشرت بجريدة « مصر الفتاة » يقول فيها :

شف قلبى ما يعـــانى — من تبـــاريح الهوى
يعشق الحسن ولكن — ليس يحظى بالوصـــال
أنا من وصـــل حبيبى — بين صـــد ونوى
من عذيرى من بخيل — ضـــن حتى بالخيـــال

ولم أستطع أن أعرف هل كان لتلك « التباريح » باعث لها فى الواقع ، فكان هناك حبيب يصد ويضن حتى بالخيال . . . أو هو شعر تقليدى من قول الذين يقولون ما لا يفعلون .

قد يكون باعث ذلك الغزل « أطياف » أخرى فى القاهرة ، عرضت له هنا أو هناك ، فنبض لها قلبه ، وقد يكون الباعث شيئاً آخر وحده أو مع تلك « الأطياف » ، ذلك الشىء هو ضيقه بالحياة الأزهرية وتطلعه إلى آفاق جديدة ، وهو الأمر الذى دفعه إلى مناقضة التزمت وطرق موضوعات تعاكس تقاليد تلك البيئة ، ومن هذا ما كان يكتبه عن ارتياده للمسارح والملاهى وإعجابه بالمغنيات والممثلات . ولا أجد إلا هذا

تفسيراً لتحوله إلى العكس بعد أن لحق بالجامعة المصرية القديمة وجد فى الدرس بها . فقد تبدلت مشاعره ، وصار يشعر بحياة جدية جديدة أقبل عليها وأحبها فأزالت من نفسه ذلك الشعور ، وهنا جاءت المفارقة التى تتمثل فى ذلك التحول ، فقد داخله الجد وهو طالب فى الجامعة ، وكان من هذا الجد تأثره بأبى العلاء المعرى وعزمه على أن يحيا حياة مماثلة لحياته .

وذهب الأديب الشاب إلى باريس ، عقب الحرب العالمية الأولى ، مبعوثاً مع رفاقه من قبل الجامعة المصرية . وهناك أتيح للشاب العلائى ما لم يكن فى حسبانه قط ، أتيح له الحب الذى محا أفكاره العلائية ، وبدد عزلته وانقباضه ، وبعث فيه روحاً جديداً ، أو قل أزاح عن جوهره « ورق السلوفان » الذى لفته به فلسفة أبى العلاء وتشاؤمه ، فبدا على حقيقته : طه حسين الذى شغل الناس وازدهرت به المجتمعات .

تعرف الشاب فى الجامعة المصرية بالفتاة « سوزان » التى اقترن بها بعد أن أتم دراسته . تقدم منها على استحياء . كى تساعده بالقراءة على أعباء الدرس ، فقبلت ورحبت ، وأقبلت عليه بحنان ولباقة لم يعهدهما فى امرأة من قبل . كان فى طفولته يشكو من عطف يخصه به والداه ، ومن إهمال يمزجانه بالرأفة واللين ، وكان يضايقه من إخوته وأخواته احتياط

فى معاملته ، لأنه يجد فيه شيئاً من الإشفاق مشوباً بشىء من الازدراء . فلم يكن يخطر له أن يلقى مثل هذا الحنان الذى وجده من فتاته خالصاً صافياً ، طلعت شمسه على ليل أبى العلاء الذى خيم فى نفسه ، فلم يلبث هذا الليل إلا أن جلا إلى غير رجعة .

وقضى الشاب فى باريس سنتين دارساً مجدًّا فى ظلال هذا الحب الذى حفظ نقاءه بالاتفاق على الزواج . وبعد هاتين السنتين استدعت الجامعة المصرية طلابها من باريس لأنها لم تجد ما تنفقه عليهم ، فعاد الشاب إلى مصر حيث مكث بها ثلاثة أشهر ، حتى استطاعت الجامعة أن تدبر أمرها وتعيد بعثتها إلى فرنسا ، وأحس الشاب فى هذه الفترة لأول مرة فى حياته أن له همًّا جديداً يشغله مصبحاً وممسياً ، ويؤرقه بين الإصباح والإمساء ، ولم يكن به قبل ذلك اهتمام بغير الدرس وأن يبلغ فيه ما يريد . وصار عليه بعد ذلك أن يتم دراسته ليعقد قرانه ويأخذ نصيبه من الدنيا ، لا ليزورّ عنها ويعتكف ، كما ازور واعتكف أبو العلاء .

ويقص علينا هو — فى مقال نشر بمجلة الهلال — قصة ذلك الحب الكبير ، يقول :

«كان ذلك فى اليوم الثانى عشر من شهر مايو سنة ١٩١٥

فى مدينة مونبليه ، فى وقت يقع بين السادسة والسابعة مساء ، عند ما طرق باب غرفتى ، ودخلت منه فتاة تصحبها أمها فسلمت فى استحياء ، وأخذنا فيما كنا قد التقينا له من حديث ، كنت أول أجنبى تراه هذه الفتاة ، وكانت أول فتاة تزورنى ، وقد نظمنا مواعيد نلتقى فيها إذا كان المساء من كل يوم فنقرأ ما شاء الله أن نقرأ من أدب وفلسفة وتاريخ . واتصل لقاؤنا شهرين كاملين فى المساء من كل يوم ، تقرأ لى ونتحدث أحياناً حتى قام بينى وبينها ود عقلى خالص . ثم مضى بها الصيف إلى حيث يصطاف الفرنسيون من أعالى الجبال وسواحل البحر ، وبقيت أنا فى تلك المدينة ، أقرأ الأدب الفرنسى مع غير هذه الفتاة . ولكننى لم أكن أسمع صوت قارئتى ، وإنما أسمع صوت صديقتى . ثم يريد الله أن أعود إلى مصر يائساً بائساً ، وتعود هى إلى باريس ، ولكن الكتب تتصل بيننا حتى تتاح لى العودة إلى فرنسا ، فإذا أنا أعدل عن مونبليه إلى باريس ، لأن السوربون فى باريس ولأن « سوزان » فى باريس أيضاً .

« ثم أبلغ باريس وألقى صديقتى ، وشهد الله ما افترقنا بعد هذا اللقاء إلا كارهين . كنا نلتقى إذا أصبحنا ونلتقى إذا أمسينا ، ونقضى شطراً من الليل فى صحبة أمها وأختها ، لأنى اخترت المقام فى أسرتها . على أنى قضيت فى سنة ١٩١٦

أشهراً ليس بينى وبينها إلا ما يكون بين المعلم والمتعلم ، وبين الصديق والصديق ، ثم لم يلبث الحب أن اتخذ سبيله إلى نفسي ، فكنت أسمع صوتها وهى تقرأ لى فأشغل بهذا الصوت عما كان يحمل إلىّ من الألفاظ وعما كانت تدل عليه هذه الألفاظ من معان . ثم يأبى هذا الحب إلا أن يعلن نفسه ، ولكنه لا يلقى صدى إلا أن يكون هذا الصدى رفقاً وعطفاً وإشفاقاً ، والحب لا يسأم ولا يعرف الفتور أو الإخفاق ، ولكنه يلح حتى يظفر أو يفنى صاحبه . وقد ألح حبى وأسرف فى الإلحاح . واضطرت صديقتى إلى أن نفترق . فتركتنى فى باريس ومضت هى مع الصيف إلى الجنوب .

« فيا لها أسابيع تلك التى قضيتها فى باريس لم أعرف فيها راحة ، ولا نعمة ، ولا أمناً ولا هدوءاً . والكتب مع ذلك متصلة بيننا ، ثم ينتهى إلىّ كتاب منها تدعونى فيه إلى أن ألحق بها حيث تقيم .

« أحبب إلى بهذه القرية الريفية من قرى الجنوب . هنالك أعلنت خطبتنا فى مساء يوم من الأيام . فلما أصبحنا بدأنا ندرس معاً مقدمة ابن خلدون ، ونستعد معاً لتهيئة الرسالة التى سأتقدم بها لامتحان الدكتوراه .

« وقضينا عاماً كاملا خطيبين صديقين ، ندرس الأدب

والفلسفة والتاريخ واللاتينية ، وفى اليوم التاسع من أغسطس سنة ١٩١٧ حين أوشك النهار أن ينتصف ، أتم الله نعمته علىّ وجعل لى من « سوزان » نوراً بعد ظلمة ، وأنساً بعد وحشة ، ونعمة بعد بؤس » .

ثم جاء الزوجان إلى مصر عقب ثورة سنة ١٩١٩ ، استأنفا فيها حياتهما الزوجية ، محبين متعاونين فى السراء والضراء . وقد هيأت له أسباب الراحة والاطمئنان فى حياته الخاصة وشاركته فى آلام نفسه وأمانيها ، وكانت خير معين له فى فترات شديدة من حياته ، إذ كانت تحاول دائماً أن تثبت فيه الصبر والشجاعة ، وتربت إحساسه المرهف ، فيمر بالشدائد كريماً جلداً ظافراً .

وعرف هو لها ذلك الفضل وقد أبداه فى بعض ما كتب ، وعبر عنه بإهدائه إليها بعض مؤلفاته ، فمثلا أهدى إليها كتابه « قصص تمثيلية » بالعبارة الآتية :

« إلى زوجى التى جعل الله لى منها نوراً بعد ظلمة ، وأنساً بعد وحشة ، ونعمة بعد بؤس ، أرفع هذا الكتاب» . وقد كتب فى آخر « الأيام » يخاطب ابنته فيذكر لها طرفاً من ماضيه ويقرنه بما آل إليه ، وينسب الفضل فى ذلك إلى قرينته ويقول :

« لقد حنا يا ابنتى هذا الملك (زوجته) على أبيك ، فبدله من البؤس نعيما ، ومن اليأس أملا ، ومن الفقر غنى ، ومن الشقاء سعادة وصفواً . ليس دين أبيك لهذا الملك بأقل من دينك . فلتتعاونا يا ابنتى على أداء هذا الدين وما أنتما ببالغين من ذلك بعض ما تريدان . »

ولو كتب طه حسين الجزء الثالث من « الأيام » لكان كله من نصيب هذا الملك ، ولقرأ الناس فيه أروع آيات الحب والوفاء . ألا ليته يفعل !

وإذا كان من الحقائق الأدبية المعروفة أن الكاتب كثيراً ما يتقمص أشخاصه الذين يتحدث عنهم فنحن نلمس أثر هذا الحب فى كثير مما كتبه فى القصص . وأكاد أرى طه حسين فى شخص « شهريار » فى قصة « أحلام شهرزاد » فقد وصف حب شهريار لشهرزاد وحبها له وعنايتها به ، وصفاً مشبهاً لظروفه إذ جعل شهرزاد تنقل الملك شهريار ، كما نقلته « سوزان » من حال إلى حال .

وقد عنيت بتتبع ما كتبه طه حسين فى علاقات الأزواج ، فألفيته يقدس هذه الرابطة ويصور شناعة تفككها ووهن أسبابها .

وما قصة « أديب » إلا مأساة رجل لجأ إلى تطليق زوجته

ليستطيع السفر عزباً فى بعثة الجامعة . لقد صور طه حسين هذا العمل فى أبشع صورة ، وتتبع صاحبه فى لهوه وعبثه بفرنسا حتى انتهى به إلى الجنون .

وفى قصة شجرة البؤس يجعل الرجل يمسك بزوجته التى تعد مثالاً للدمامة والقبح ، والتى جُنّت ، والتى علم أنها فى بيته غرس للبؤس ينمو ويتفرع ويؤتى الحنظل من ثمراته . ويحرص عليها مع ذلك كله . ويستعين المؤلف على هذا التصوير بالسلطة الروحية التى يسلطها شيخ الطريقة الصوفية على الزوج البطل .

حتى القصص التمثيلية التى اختارها من الأدب الفرنسى وتناولها بالنقد والتحليل ، نراه قد توخى فى اختياره هذا النوع الذى تعرض فيه حياةِ الأسرة عرضاً يظهر فيه الحرص على السعادة الزوجية وتجنيب سفنها طغيان أمواج الشر والفساد .

وأستطيع بعد ذلك أن أجزم بأن حب طه حسين قد تبلور فى حياة الأسرة وساعده على ذلك نفوره من الإثم والخطيئة ، وهو يرى أن الأمر فى ذلك لا يقف عند الدين ولا عند الكفر والإيمان ولا عند رعاية العادات والاحتفاظ بالتقاليد والأخلاق ، وإنما هو — كما يقول فى « أديب » بعد ذلك — : « يتجاوز هذا كله إلى شيء لا أدرى كيف أصفه

ولكن صورته تقع فى نفسى موقعاً سيئاً ، فقد يخيل إلى أن الإنسان المتحضر المثقف خليق ألا يتجرد ولا يعرى حتى أمام نفسه إن وجد إلى ذلك سبيلا . »

توفيق الحكيم

الحبيبة الأولى لتوفيق الحكيم ، هى « الأسطى لبيبة شخلع » العالمة ، وكان الفنان الصغير فى السادسة من عمره . . . وقد اندمج فى فرقة العالمة وصار واحداً من أفراد « التخت » .

كانت تجول فى نفس الصغير مشاعر مبهمة تدفعه إلى أن « ينحشر » بين العوالم ويأكل ويغنى معهن ، حريصاً على اعتباره « سنيداً » كحفيظة ونجية وسلم العمياء ، يذهب معهن إلى العرس ويأبى إلا أن يحمل شيئاً من آلات الفن ، يدل على أنه عضو فى « التخت » . . .

تلك « المشاعر المبهمة » هى ميول الفنان ، نراها تظهر مبكرة فى عالم الموسيقى والغناء ، وفيها شىء آخر . . . شىء يبعث فى نفسه الفرح ، وهو يجلس على الأرض مع أفراد الفرقة ، ناظراً إلى تلك المرأة اللطيفة الظريفة التى ناهزت الثلاثين ، مرتفعة فى الوسط على كرسى كبير تحمل العود بين ذراعيها . . . كان ينظر إليها كمن ينظر إلى إلهة فوق قاعدة من الرخام .

كانت « الأسطى شخلع » تزور أسرة الصغير « محسن » — كما يحدثنا توفيق الحكيم فى « عودة الروح » — كل صيف مع تختها وآلاتها ، فتلبث عندهم طول الصيف أو بعضه ضيفة مكرمة تسلى الست الكبيرة المريضة « جدة محسن » التى أشار الطبيب على الأسرة أن يفرحوها . . .

ومحسن الصغير هو الذى صار فيما بعد الأديب الكبير . ومن الإحساس الدقيق الذى يدلنا على وجود قلب إنسان فنان فى ذلك الوقت ، شعوره بالعطف على « سُـأُـم » العمياء زميلته فى التخت ، إذ قدم إليهم فى العرس طبق من « الكسكسى » ونسى الخدم أن يحضروا الملاعق ، فجعلوا يأكلونه بالشوكة : يجعلونها فى وضع أفقى . . . وحارت الضريرة ، إذ كانت تغرزها رأسيا فلا يعلق بها شىء ، وأراد باقى الزميلات أن يتركنها هكذا ليضحكن ويتسلين ، ولكن « محسن » رق لها قلبه ، فأخذ يعلمها أكل « الكسكسى » بالشوكة حتى استطاعت أن تأكل مثلهم .

ونعود إلى الشعور الغريب المبهم الذى كان يحس به « محسن » نحو لبيبة شخلع ، فلم يكن الأمر كله إعجاباً وإكباراً من تلميذ لأستاذته فى فن الموسيقى والغناء على النحو الذى تذوقه أول ما تذوق على يدى الأسطى « شخلع » يصف

لنا ما يشعر به نحوها عند ما أقنعت والدته حتى وافقت على أن يصحب « العالمة » إلى العرس ، فيقول : « وفى أعماق قلبه الصغير حفظ لشخلع إحساساً أقوى من مجرد الشكر والامتنان .. إحساساً عميقاً يجهله حتى تلك الساعة .

ويتجه الضوء نحو هذا الإحساس العميق عندما بدأت « شخلع » بالرقص نصف عارية فى ثوب الرقص الذهبى المضىء وراحت ترقص بجسدها اللين ووسطها يلعب كأنه قُدَّ من الملبن . . . والصاجات تدوى بين أصابعها المطلية بالحناء . . وانبهرت العيون . وكانت عينا محسن أشدها انبهاراً « ثم شعر بعدئذ بإحساسات أخرى مبهمة » .

ويسطع الضوء المتجه إلى ذلك الإحساس ، مائلا قليلا إلى الحمرة . . . عند ما تفقدته وقد تقدم الليل فى العرس . ثم وجدته نائماً تحت كرسيها الكبير فأخذته بسرعة بين ذراعيها وغطت وجهه بقبلاتها . . . يقول بعد أن كبر فى « عودة الروح » : « إن مر السنوات لن يمحو أبداً من ذاكرته تلك اللحظة الحلوة السعيدة التى فتح فيها عينيه ليرى نفسه بين ذراعيها يتلقى قبلاتها . »

ويسطع الضوء أكثر ، مائلا فى هذه المرة إلى الصفرة ، حين تشاء الظروف بعد ذلك أن تتزوج « شخلع » من

« الحاج أحمد المطيب » فقد أحس محسن كآبة وخيبة آمال وشبه سراب يزول وشيئاً كالقنوط يحل فى أعماق نفسه دون أن يدرك لذلك أسباباً » .

وماذا عسى أن تكون الأسباب غير الحب . . . ؟ وما أظننا بحاجة إلى الخوض فى آراء علماء النفس التى تعتبر الطفل فى هذا الصدد : رجلا صغيراً ، أو امرأة صغيرة .

كان الفتى « محسن » وقد صار فى الخامسة عشرة يحدث بتلك الذكريات — فى « عودة الروح » — حبيبته « سنية » التى سنأخذ فى حديثها بعد ذلك والتى غنى لها أغنية عبده الحامولى : « قدك أمير الأغصان » وهذه الأغنية مما تعلمه على « الأسطى شخلع » ، فسألته « سنية » عن « شخلع » وكيف عرفها ، فحكى لها أمره معها .

وقد كان « توفيق الحكيم » جميل الصوت فى صغره ، وكان غناؤه وشغفه بالموسيقى من أسباب اتصاله « بسنية » التى كانت تجيد العزف على البيانو . وكان من المحتمل أن يكون مطرباً أو موسيقياً كبيراً يسحر الناس بفنه ، كما سحر « سنية » ووالدتها التى تمثلت فيه عبده الحامولى وهو يغنى ، وكما سحر الناس بعد ذلك بأدبه وفكره .

رأى « محسن » سنية أول مرة من ثقب الباب ، عند ما

كانت فى شقتهم تزور عمته . كان جالساً مع أعمامه العزاب الذين يعيش معهم فى القاهرة وتقوم على شأنهم فى المنزل عمته وهى أختهم . فجاء إليهم الخادم يقول وهو يغمز بعينه مشيراً إلى حجرة العمة ، إن عندها « ضيفة » لم يجد وصفاً لحلاوتها أدق من أن يقبل أطراف أصابعه . . . وهرع الفتى « محسن » مع أعمامه الشبان إلى باب الحجرة المقفل ، وراحوا يتدافعون على ثقب الباب متضاحكين بصوت خافت ، وبهتوا لجمال لم يروا مثله . وكان لكل منهم معها بعد ذلك شأن . أما « محسن » فقد شغل بها كما يشغل العابد بمعبوده . . . طار منديلها من سطح منزلها المجاور لمنزلهم ، فالتقطه وأخفى أمره . وجعل يحمله كما يحمل أهل السنة المصحف الشريف . . . ويعلم « محسن » أن عمته تلتقى بسنية على الحدود بين السطحين فما أحب إليه من أن يصعد معها . . . وسمع صوتاً موسيقياً حلواً ينادى عمته من وراء الحدود . كان نذيراً أو بشيراً بإعلان الاشتباك فى الحب . . . وبعد أن اقتنعت سنية بأن محسن « عيل صغير » سفرت فى شىء من التحفظ والخفر . وحيت محسن ، فرد التحية متلعثما خجلا ينظر إلى الأرض ، ومد يده يبحث عن كتابه يدارى فيه خجله ، فأخفت الفتاة ابتسامة خفيفة ، ثم التفتت بعينين كعينى غزال إلى كتاب محسن وسألته فى دل وسحر :

ـ دى رواية ؟

ـ لا . . . دا ديوان شعر . . . مهيار الديلمى .

ـ حضرتك تحب الشعر ؟

ـ أيوه . . . وحضرتك ؟

ـ أنا . . . فى الحقيقة . . . أفضل الروايات ، ومع ذلك أحب بعض قصايد وأزجال أغنيها على البيانو .

وأسرعت العمة تقول :

ـ ومحسن كمان يغنى . ما تعرفيش إنه بيغنى ؟ دا عليه صوت يا سنية هانم . أنا ما حكيت لكيش إنه وهو صغير كان اسم الله عليه بيغنى مع الأسطى « شخلع » العالمة فى « التخت » !

سنرى هذا الفتى يدأب على أمرين يبدوان متناقضين ، هما اللباقة فى الغزل ، والخجل مع الارتباك ، أما الأولى فتدخل فيها ولا شك صنعة المؤلف فى الحوار ، ولعلها قدرة فى الفتى مغطاة بستار الخجل الذى نسجته البيئة فى ذلك الزمن ، نشأ صاحبنا فى الريف ، وقد دخل مرة على سيدة فى منزلهم وهو فى الثانية عشرة من عمره ، فسارعت بإنزال الخمار على وجهها . ولما قالوا لها : « إنه عيل صغير » تناولت طرف ثوبها وسلمت بيد مغطاة . . . واستقر فى نفسه من ذلك وأشباهه أن من الأدب أن يكلم المرأة ـ إن كلمها ـ وهو ينظر إلى الأرض .

ونعود إلى السطح . . . وقد تركنا الموقف هناك يصل فيه الحديث إلى الغناء والعزف ، وما دام محسن يغنى كعبده الحامولى ، وما دامت سنية تعزف على البيانو ، وما دام محسن ولداً صغيراً ، فلا بأس أن يهبطوا من السطح إلى داخل منزل الدكتور حلمى والد سنية ، وستسر والدة سنية من غناء محسن الذى يحاكى عبده الحامولى .. . وستنكر الأم وجود رجل ، ولكن الفتاة تقنعها بأن ولداً صغيراً كهذا لا يسمى رجلا . . .

وقفزت سنية فى خفة الغزال إلى البيانو ، ومرت أصابعها على مفاتيحه العاجية وأطلقت منها صوتاً كتغريدة العصافير ، ونظرت إلى الفتى المرتبك تدعوه إلى الغناء ، ويتردد الفتى ويلحظ نظراتها التى لا تعصى ، فيرتفع صوته مرتجفاً قليلا بادئ الأمر ، ثم يثبت ويستقيم ويتضوع فى فضاء المكان حلواً حارًّا فى نغم يؤدى لحن عبده الحامولى :

قدك أمير الأغصان   من غير مكابر
ورد خدك سلطان   على الأزاهـــر
الحب كله أشجان   يا قلب حاذر
الصد ويا الهجران   جـــزا المخاطر

وكانت سنية تصغى إلى محسن بسرور ولذة ، وتنظر إلى

سقف الحجرة مبتسمة طروباً وتردد بعض النغم فى نفسها معه ، ولكنها ما فطنت إلى أن المغنى إنما يعنيها ويفكر فيها ، وأعجبت والدتها بعبده الحامولى الصغير فوافقت على أن يعلم ابنتها الغناء على أصول الفن .

وشعر محسن بأن نفسه لا تتسع للسعادة التى غمرته ، فخلا إلى منديلها الحريرى يحادثه ويلثمه ويبوح له .

وذهب إلى المدرسة فى اليوم التالى والسرور يكاد يثب من صدره ، ولما لقى صديقه الحميم عباس بادره بقوله :

ـ عباس . . . الحياة جميلة !

ونظر إليه عباس مبغوتاً ، وقال محسن :

ـ تعرف يا عباس إيه هى السعادة اللى بنسمع عنها ؟ إن كنت جدع صحيح تقول لى إيه هى السعادة ؟

ـ السعادة ؟ ! أنا عارف ؟ . . .

ـ ما تعرفش إمتى تكون سعيد ؟

ـ يوم ما أنجح فى الكفاءة .

ـ أنت مغفل !

ودق جرس الدخول إلى الفصول ، وقال مدرس الإنشاء لمحسن :

ـ اختر موضوعاً وتكلم فيه .

فبحث محسن فى خاطره عن موضوع ، وكان فؤاده مشغولا بموضوع واحد . . . وكتب على السبورة : « رأس الموضوع : الحب »

وهاج الفصل ودهش المدرس وصرخ مستنكراً :

ـ الله . . . الله . . . ما شاء الله ! . . امش انجر اقعد محلك بلاش قلة حيا ومسخرة !

وتتعاون قوة الخيال مع شدة الخجل على رسم صورة عجيبة لهذا الحب . إنه يكون لنفسه وهو بعيد عنها عالماً زاخراً بالرؤيا والعواطف ، فإذا التقى بها وجلس معها ارتبك ونظر إلى الأرض .

عاد إلى بلده فى إجازة نصف السنة تلبية لدعوة والديه ، وهو يعزى نفسه من فراق سنية بخطاب سيأتيه هناك من عمته تكتبه لها سنية بخطها . ووصل إليه الخطاب وقرأه على أن كاتبته سنية وعلى أنها إنما تخاطبه من وراء ستار . ولكن لغة الخطاب مبتذلة ، فهو يبدأ هكذا : « من بعد مزيد السلام والسؤال عن صحة سلامتكم . . . إلخ » .

وسنية متعلمة تقرأ القصص وتطالع الكتب فلا يعقل أن يكون هذا أسلوبها . ولكن خياله لا يرضى بهذا ، لا بد أنها تداعبه . وابتسم لهذا الفرض : دعابة لطيفة ! ورجع يقرأ الخطاب على هذا الأساس ، ويضحك معجباً بظرف معبودته !

ولا يكتفى خياله بهذا ، فهى قد اختارت هذا الأسلوب ليناسب حال عمته التى أرسلت الخطاب باسمها ، ما أذكاها ! وقبل ذلك : ما أظرفها !

« فإذا كنت تحب عمتك يا محسن فلا تتأخر أكثر من ذلك » ، إنها تعبر عن عاطفتها من خلف الستار ، ولولا الحياء لقالت :

« فإذا كنت تحب سنية يا محسن . . . إلخ » ، وراح يضيف من نفسه إلى العبارة الواردة فى الخطاب فيقول فى نفسه : « . . . فلا تتأخر أكثر من ذلك فإن مصر بدونك مظلمة ! » صحيح ؟ مصر بدونى مظلمة ؟ فى نظر سنية ؟ !

وبعد أن يبنى على هذا الخطاب من قصور الخيال ما يحلو له يتبين — بعد عودته إلى القاهرة — أن سنية لم تكتب الخطاب وإنما كتبه « عرضحالجى » فى ميدان السيدة زينب . . . بعد أن دب الشقاق بين عمته وبين سنية . وانقطعت الصلة بين الأسرتين . فإذا عز الخيال على محسن فى عالم اليقظة لجأ إلى الأحلام . . . رآها فى المنام تهمس إليه :

« مش قلت لك إن كنت تحبنى ما تتأخرش عن مصر أكثر من كده ! »

ويرد عليها — فى المنام — قائلا :

« وأنا حضرت بمجرد وصول الخطاب »

ومع ذلك الخيال المفرط ، نجد صاحبنا يمعن فى الخجل والارتباك معها ، فإذا سألته متلطفة :

— رايح تعلمنى إيه النهارده يا أستاذى ؟

أجابها مطرقاً متأدباً :

— زى ما تطلبى حضرتك !

وإذا أطرت غناءه وطريقته فيه تشجع وقال :

— متشكر يا سنية هانم . . . دا من لطفك . . .

وقبلته مرة فى أسفل خده فى موقف حار ، ولكنه لم يرد الجميل . . . واختزن حرارته كى يصعدها فى عالم الخيال بعد الانصراف . . .

فهل تنقصه الجرأة أو هو يزهد فى الواقع القريب ليستمتع من بعيد بعالم خالص يكونه فكره وخياله ؟ يخيل إلى أن الأمر الثانى أكثر توافراً ، وهو يتفق مع طبيعة توفيق الحكيم ، فهو يحب أن يخلق لنفسه أجواء ينعم فيها بعيداً عن الواقع ، وسيزداد وضوح ذلك من حوادث حبه الأخرى .

هذا هو فى باريس ، عصفوراً من الشرق ، ذهب إليها يطلب العلم ، ولا بد للفتى الحالم أن يطلب الحب أيضاً ، ويظهر أن الفرنسيين الذين نزل عندهم أسموه عصفوراً من

الشرق ، لأنهم رأوه شاباً نحيلا وادعاً خيالياً ، وقد كان فعلا خيالياً أكثر مما ينبغى ، لا بالنسبة للباريسيين فقط ، بل كذلك بالإضافة إلى الشرقيين أنفسهم . . .

إنه يحب فتاة تجلس فى شباكها تشرف على الناس بعينين من فيروز ، وهم يمرون أمامها من كل جنس ومن كل طبقة ، وهى تبتسم بين آن وآخر ، دون أن يعرف أحد سر قلبها .

ليست هذه الفتاة شهرزاد ، وليست فى قصر سحرى من قصور ألف ليلة وليلة ، وإنما هى عاملة فى شباك تذاكر مسرح الأوديون . . . لا يريد أن يتقدم إليها بباقة من الزهر ، أو زجاجة من العطر ، أو يدعوها إلى العشاء فى مطعم كما يفعل سائر المحبين هناك ، وإنما هو عصفور يلتقط الحب « بضم الحاء » على طريقته الخاصة . . . اتخذ قاعدته فى قهوة أمام الشباك ينظر إلى « سوزى » ذات العينين الفيروزيتين ، ويحثه صديقه الفرنسى على أن يذهب إليها ويفاتحها بما فى نفسه .

ثم يضيق العصفور بالجلوس فى القهوة . الجلوس الذى طال دون جدوى وينشط للعمل على طريقته . . . فيتبع « سوزى » حتى يعرف الفندق الذى تقيم فيه ، وينزل به فى حجرة فوق حجرتها ، ويهدى إليها ببغاء فى قفص على طريقته أيضاً . . . ووضع

فى عنق القفص حبلا وأدلى به من نافذته حتى ركز على حاجز نافذة الفتاة . وعند ما فتحت نافذتها رأت نفسها أمام ببغاء فى قفص مدلى بحبل . . . فرفعت عينيها فرأت محسن يبتسم لها . . . وسألته عن اسم الببغاء ، فقال لها ، اسمه محسن ! وما كادت الفتاة تنطق هذا الاسم حتى صفر الببغاء وصاح :

— أحبك ، أحبك ، أحبك !

فضحكت « سوزى » وقالت :

— عجباً ! من لقنه هذه الكلمات ؟

— لا أحد . . . فى « عينه نظر » ، هذا كل ما فى الأمر !

والواقع أن الذى فى عينه نظر هو « العصفور » لا الببغاء . . ولعله قد اختار هذه الهدية لا لطرافتها فقط ، وإنما لشىء آخر هو أنها هدية لا تتكرر . . . فالببغاء لا يبلى كالجورب النيلون ولا ينفد كزجاجة العطر ، ولا يذبل كالزهرة ، والأمر فى كل ذلك يحتاج إلى تجديد الشراء . . .

وذهب الشباب ، وخيل للكاتب الكبير فى بعض أطواره أنه بحاجة إلى نبع جديد يستلهمه روائع الفن ، إلى فتاة جديدة تأنس إليها بنات أفكاره . . فكانت فتاة تقيم فى حجرة ملاصقة لحجرته فى (بنسيون) بالقاهرة ، و بين الحجرتين باب مقفل ، يسمع ضحكاتها الرقيقة ، ويقول للناشر الذى زاره فى حجرته :

« لو علمت أن كل ما أكتب لك وأنشر عندك منذ شهور إنما خرج من خصاص هذا الباب ! »

وظل يقيم لها فى نفسه تماثيل من ذهب ، يدير لها « الجرامفون » ليسمعها موسيقى موزار . . . وجعل يرقب حركاتها ويستمع أنفاسها ، ويؤول كل ما يراه وما يسمعه منها على هواه ، ويمعن فى خياله حتى يصورها كنزاً لا يقوم بمال . ثم يعلم بعد ذلك أنها من بنات الهوى وفتيات الليل ، وعند ما يفضى إليه صديقه بهذه الحقيقة ، يقول له : لماذا جئت تقول لى هذا الكلام ؟! لأنه كان يريد أن يظل على تصوره إياها ، ليظل يستلهمها الصفاء الذى يجرى بين سطوره على على نحو ما يحدثنا فى قصة « وجه الحقيقة » بكتاب « تحت شمس الفكر » .

ولكن هل حقـًّا يلهم « الحب الصناعى » فنـًّا وصفاء ؟ وهل الكاتب فى حاجة إلى أن يستجد حبـًّا ليكتب ويبدع فيما يتصل بالوجدان ؟ إن العواطف القديمة لم تذهب سدى لأنها مستكنة فى الأعماق ، وهى التى توحى وتلهم ، وهى التى يستمد منها الكاتب ، إذ يتمثل عند ما يكتب ويصور تلك الأحاسيس والمشاعر ويضفيها على من يبدعهم من أشخاص وأبطال .

أما « الحب الصناعى » فما يجىء معه من فن فهو من

أثر النار القديمة إن كان الكاتب من ذوى الشوق القديم ، وإلا فهو كمصدره فن صناعى زائف .

ولعلى أستطيع هنا أن ألقى ضوءاً على ما يسمى « عداوة توفيق الحكيم للمرأة » إنه يتخيلها كما يقول ، تمثالا من الفضة أو باقة من الزهر أو قطعة من روائع الموسيقى ، ولكنه يحب أن تكون هذه القطعة مسجلة على أسطوانة ، ينطقها ويسكتها بإرادته ، وهو على هذا يقدسها ويكبرها ولكنه يراها أحياناً كالطفل يلقى من النافذة كل شىء ثمين ويجلس على حافتها يضحك ضحكة الانتصار .

وهو يرى المرأة مخلوقاً ضعيفاً هشًّا بين يدى من تحب ، ولكنها قاسية جبارة مع غيره تحطم كل قيد يحول بينها وبين الرجل الذى تريد ، وقد تبنى مع من تحبه ، فهى هادمة فى ناحية ، بانية فى ناحية أخرى .

وهو يبغض قسوتها ويخشى منها الهدم والتحطيم ، ويحب بناءها فى « صينية » من البطاطس .

وهو بعد هذا يخشى بأسها على حريته ، لأنه يتمثلها كسجان . . . تسجن الرجل جنيناً فى بطنها ، وتسجنه أسيراً فى حبها ، وأخيراً تحبسه فى بيت الزوجية حيث يبقى إلى النهاية . . .

عباس محمود العقاد

نستطيع أن نضع أصبعنا على حب العقاد لامرأة بعينها ، إذ كان فى نحو الثلاثين من عمره ، وهو أديب شاب ناضج ، عرف اسمه فى عالم الأدب والصحافة ، وكان من رواد الندوة الأسبوعية التى كانت تعقدها الكاتبة الأديبة « مى » فى منزلها ، ويحضرها أعلام الأدب فى ذلك الوقت . وكان بعضهم يحبها ، أو يخيل لنفسه أنه يحبها . . . فقد كان الحجاب مضروباً على المرأة إذ ذاك وكان سفور الفتاة الأديبة « مى » ومجالستها للرجال — أمراً باهراً . . . بهر أصدقاءها هؤلاء الذين يترددون على ندوتها . كان كل منهم يخلو إلى نفسه بعد انفضاض الندوة ، ويتمثل النظرات الحلوة والحديث العذب والجمال الفتان . . . ثم يترجم كل ذلك إلى غزل فى قصيدة أو رسالة يبعث بها إليها . وكانت هى تتلقى ذلك فى برود ، فإذا لقيها أحدهم لم ير منها ما يدل على أنه صنع شيئاً . . . فيضطر أن يحيل الغزل « التحريرى » إلى « شفوى » فتشير إليه بإصبعها على فمها أن « هس » . . . ! ! فيهس[1] . . . ولا يجهر بكلام .

---

(١) فى القاموس « هس الرجل » حدث نفسه .

وبرود « مى » نحو الرجل قد لازمها حتى توفيت آنسة أو قل إن شئت آنسا . . .

ويحدثنا العقاد فى كتابه « سارة » أنه أحب هنداً قبل « سارة » ونفهم من الوصف وسياق الحديث ، ومن شعر قاله فى « هند » ، ومن روايات المعاصرين والمعاشرين ، أن « هنداً » هى « مى » .

كان حبه « لهند » — كما جاء فى الحديث — خالصاً للروح والوجدان ، وكان حبه « لسارة » مستغرقاً شاملا للروحين والجسدين . كانت المرأتان على طرفى نقيض ، يصفهما بقوله :
« فإذا كانت "سارة" قد خلقت وثنية فى ساحة الطبيعة "فهند" قد خلقت راهبة فى دير ، من غير حاجة إلى الدير ! تلك مشغولة بأن تحطم من القيود أكثر ما استطاعت ، وهذه مشغولة بأن تصوغ حولها أكثر ما استطاعت من قيود ، ثم توشيها بطلاء الذهب ، وترصعها بفرائد الجوهر . الحزن الرفيع والألم الغزير شفاعة عند "هند" مقبولة إذا لم تكن هى وحدها الشفاعة المقبولة ، أما عند "سارة" فالشفاعة الأولى بل الشفاعة العليا هى النعيم والسرور . تلك يومها جمعة الآلام ، وهذه يومها شم النسيم » .

واستطاع « شم النسيم » أن يقهر « الجمعة اليتيمة الحزينة » .

لم يرتبط مع هند بعهد ، وإنما كان يطوف حول تمثالها الصخرى الخالى من الوجدان نحو الرجل ، حتى كان آخر عهده بها أو بحبها قبلة على يدها ، أعادها وهى تمانعه وتنصرف عنه متمتمة هامسة : دع يدى ، ودعنى !

وفى قرابة الستين من عمره وقف يرثيها فى حفل أقيم لتأبينها فى دار الاتحاد النسائى ، فقال :

تلكم الطلعة ما زلت أراها　　غضة تنشر ألوان حـــلاها
بين آراء أضاءت فى سناها　　وفروع تهـــادى فى دجاها
ثم شاب الفرع والأصـــل وغاب

أما « سارة » فحبه إياها الذى محا حب الأولى وعفّى على أثره ، هو أعنف حب مه به ، أشعله التقاء فتاة جميلة فائرة الأنوثة بشاب عنيف الطبع قوى الإحساس بنفسه ، هو العقاد . . . وفى ظهيرة حياته .

سماها « سارة » فى القصة التى أخرجها بهذا العنوان ، وهو بطبيعة الحال غير اسمها الحقيقى ، وصفها بأنها أجمل من رأى فى أيام فتنته وشغفه ، وقال فى وصفها إنها حزمة من أعصاب تسمى امرأة ، استغرقتها الأنوثة فليس فيها إلا أنوثة ، ولعلها

أنثى ونصف أنثى . ليست غواية الجسم عندها كجوع الحيوان يشبعه العلف ، ولكنها كرعدة الحمى وصرعة الفرس الجموح يتبعها النشاط والمراح كما يتبعها الإعياء والبكاء . لها فراسة نفاذة فى كل ما بين الجنسين من علاقة تفطن لما فى نفس المرأة لأنها امرأة ، وتفطن لما فى نفس الرجل لأنها امرأة .

ثم يقول : « أكبر الظن أن الفتاة على ما بها من جموح وشطط كانت وشيكة أن تستقيم وتتزن لو رزقت زوجاً يوائم شوقها إلى الرجولة ويغلق عليها منافذ الغواية . ولكنها خابت فى الزواج فشقيت » .

عرفها فى بيت خائطة فرنسية ، واستحال الحديث بينهما فى هذا اللقاء الأول إلى حوار غزلى قالت فيه :

– أنت فضولى .

– ليس مع كل الناس . . .

– تحيات وغزل . . . ! وعما قريب عيناك ووجنتاك وأهواك ولا أنساك ، إلى آخر هذا الموال المحفوظ !

– ولماذا عما قريب ! الآن !

– أنت عجول ، وأنت جرىء أيضاً .

– إن وعدتنى أن أجنى للصبر ثمرة فأنا أصبر من أيوب .

ولم ينته هذا الحوار حتى تخلى عن صبر أيوب . . . وقبلها

بعد أن مهد لذلك بتقبيل الحائطة . وأبدت العجوز سرورها بالقبلة . . .

أما « سارة » فلم تشتم ولم تصطنع الغضب كما توقع ، بل قالت فى صوت خافت : لقد آذانى شاربك الطويل . . .

وأكبر ظنى أن حب العقاد « لسارة » كان نقطة البدء فى عزوبته وإعراضه عن الزواج ، فقد أسعفته ولم تتأب عليه ، ثم ثارت شكوكه وساء ظنه فيها فقرَّ فى نفسه غدر المرأة وخيانتها . والحب صراع بين الرجل والمرأة ، فإما أن ينالها أو تناله . . . ينالها فلا يتزوجها ، أو تناله فتتزوجه .

كانت تزوره بمنزله فى الساعة الخامسة مساء ، وقبل حلولها بربع ساعة يلزم مكانه وراء النافذة لينظر من ثقوبها إلى منعطف الطريق وهو يحسب أجزاء الوقت بالملايين وملايين الملايين ، لا بالساعات والدقائق والثوانى فإذا احتواها البيت فإن العالم ينقسم إلى قسمين لا ثالث لهما ، قسم فيه كل شىء وهو البيت ، وقسم ليس فيه شىء وهو العالم الخارجى بما فيه من قارات وبحار وما فيه من رجال ونساء .

ثم اتفقا على أن يقضيا يوم الجمعة كله فى خلوة كاملة ، إما رياضة فى الخلاء ، أو عكوف فى المنزل من الصباح إلى المساء ، وهذا أمتع الأيام إذ يخلو لهما المنزل حتى لا طاهى

فيه ولا خادم ، ويقومان هما بالخدمة ، فى يدها المكنسة ، وفى يده سكينة التخريط . . . إلخ .

ثم جاء الشك . . . شكه فى خلوصها له ومشاركته غيره فيها ، فاستحال الحب إلى فتور ، واستحال الشوق والمتعة إلى ضجر وتمثيل . كما استحالت القصة « سارة » إلى كتاب درس وتحليل ، واستحالت الفتاة المليحة التى هى كل شىء فى العالم إلى حيوان يُشَرَّح وتجرى عليه التجارب العلمية .

واستحالت رقة الحب إلى حملات على المحبوب تذكرنا بالحملات القلمية الشعواء التى كان يشنها العقاد على خصومه فى السياسة والأدب ولا يزال يشنها مع الأدباء .

قام الشك فى نفسه لعلامات وقرائن استدل بها على أنها تنصرف عنه إلى غيره . ولم يقطع بذلك حتى عهد فى مراقبتها إلى صديق له أطال مراقبتها حتى أتى له بالخبر اليقين ، فكان ذلك « بشارة » سر بها إذ أنقذته من لجج الوساوس واستقرت به عند شاطئ التحقيق والثبوت .

قال لصاحبه : صدقت ، فهلم بنا نحتفل بتشييعها .

وانطلقا يتمشيان فى جنازة الحب الراحل . . .

ولقد أسلم نفسه إلى وساوس الشك حتى أفسد أمره وكدر صفو حبه ، بل قتله ومشى فى جنازته . . . وذهب فى ذلك

مذهباً لا يذهبه غير العقاد العنيد . وقد أطلق عليه بعض الأوقات « الكاتب الجبار » وهو جدير فى موضوعنا أن يسمى « المحب الجبار » .

والتقيا مصادفة فى فترة الشك ، وركبا عربة وأحس حرارة جسمها ، ولمس بضاضة عطفها ، وتلقى أنفاسها على صفحة خده وهى تميل إليه تنتظر كلامه ، ولما لم يتكلم هددته بالنزول من العربة ، فلم يعبأ بالتهديد ، ولم تنفذ هى تهديدها لعلمها بحقيقة عناده . ثم تواعدا فى جفاف — وهو نادم ! — على أن تأتى إليه فى الساعة الخامسة وقبيل الموعد جلس يفكر فى أن يخرج ولا ينتظرها ، ولم ينفع تصور النعمة التى تسعى إليه ، لم يشفع تذكر بضاضتها ولين ملمسها فى المركبة وأنفاسها تهب على خده فتسرى فى جميع أوصاله — فخرج من المنزل راكباً سيارة العناد .

والعجيب أنه يتعب نفسه كل هذا التعب فى البحث عن شيء هو ماثل أمام ناظريه . . . إنه يبحث ليقف على حقيقة أمرها معه ، هل هى تخونه مع صاحب آخر فيقطع ما بينه وبينها أو أن المسألة مجرد وساوس وأوهام . . . يبحث عن ذلك وهو يعرف صاحبته حق المعرفة ، يعرف أنها اعترفت له بعلاقتين سابقتين مع رجلين آخرين ، واعترفت له بما كانت

تحتال به من الحيل البارعة لتلقى عشيقها الأول . وإذا أغضينا عما فات وقلنا إنه لم يحاسبها على ماضيها وإنما يوجس من حاضرها أن يكون له شريك فيها ، فما القول فيما اعترفت له بأنه وقع فى أثناء علاقتهما ؟ فقد قالت له فى ثانى مقابلة بينهما إنها ذاهبة إلى موعد مع صديق ، ثم حكت له بعد ذلك أنها ركبت مع هذا الصديق فى سيارته ، فاقترح عليها اقتراحاً خطيراً . . . جعل يقدم له بمقدمات مملة وهو قلق مرتجف . . . حتى صرح بعد جهد جهيد — وهو يستغفر ويتلعثم — بذلك الاقتراح ، وهو أنه يتمنى على الله أن تسمح له بقبلة . . . ! حكت ذلك وهى تسخر من ذلك الصديق الذى لم يأخذ القبلة أخذاً ، وانتظر أن تمنحها له منحاً .

وأكثر من ذلك أنها اعترفت له بأنها زلت فى المصيف ، عقب فراق بينهما ، وانغمست فى صلة غامية ، ثم جاءت إليه لتقف منه موقف المعترفة من الكاهن ، فغفر لها .

نسأل بعد ذلك : فيم الشك وفيم العذاب !

الواقع الذى لا نجد غيره أن العقاد كان إذ ذاك فى فورة الشباب قوى الشعور بذاته يريد أن ينفرد بحبيبته مهما كان نوع العلاقة بينهما ، وهى على أى حال علاقة حب وليس فيه شك وإن كان قد أفسده الشك ! هو حب وإن لم يصحبه

أمل فى زواج ، فالحب حقيقة إنسانية قائمة بذاتها ، أما الزواج فهو غاية طارئة قد تكون ، وربما لا تكون .

يضاف إلى ذلك أن العقاد قوى الفكر ، فهو يقلب الأمر ولا يدع وجهاً من وجوهه إلا لطمه أو قبّله . والحب كالزهرة ، تمس فى رفق فيستمتع بمنظرها وأريجها ، فإن دعكتها اليد القاسية تناثرت أوراقها وذهبت مع الرياح .

وبعد فقد تحدثت عن محب « سارة » على أنه « العقاد » مع أن اسمه فى القصة « همام » فهل « همام » هو العقاد ؟ نعم هو بعينه ، وهل يحب ذلك الحب ويصنع ذلك الصنيع غير « عباس محمود العقاد » . . . ؟ إن كل ما هنالك لا يدع مجالا للشك فى أنه هو .

هذا صديقه الشاعر « محمود عماد » يقول له فى قصيدة وجهها إليه :

أنت فى الجنة ألقيت يقينا فدع الشك أو استمهله حينا
لا تسلها يوم تأتى أين كنت فبحسب العين أن الحسن يأتى

ويقول ما معناه : تمتع بالوردة واتق شوكها بقفاز عند قطفها.

فيرد عليه بقصيدة يقول فيها :

وردتى ياصاحبي فى الورد بدع بدعها طبع ، وكل الورد طبع

طبعها كالفخ ينهاك ويدعو وبلاء النفس فى مس جناها

ويقول العقاد فى « سارة » إن صاحبته كانت تزهى إذ ترى الناس يتحدثون عنه بإعجاب . وما ذلك إلا لشهرته .

وكل السياق والقرائن تدل على أن « همامـًا » هو « العقاد » ، ولا أرى داعياً إلى الإطالة فى ذلك غير أننى أسوق الحادثة الآتية :

كان « همام » و « سارة » يتنزهان فى عربة حنطور بالجزيرة بعد مغيب الشمس وكان الحوذى قد غفل عن إشعال مصابيحها ، فصدمت واحداً من جماعة من رجال الضبط كانت تسير هناك ، فجذبوا الحوذى من مقعده وتبارت ألسنتهم وأيديهم فى سبه وضربه ، فنزل « همام » ليصلح بينهم حتى لا يفضى الأمر إلى كتابة محضر واستدعاء شهود وما يتبع ذلك من فضيحة لـ « سارة » . فعرفه رجال الضبط لشهرته ، وسامحوا الحوذى من أجله ، ولا شك أن معرفتهم له مبنية على أنه « العقاد » الكاتب المشهور .

ويتحدث العقاد بذلك فى اعتداده المعروف ، وهذا الاعتداد يبدو واضحاً فى عدة مواضع فهو يصف « هماماً » بأنه موكول إلى ضروب من غرور النفس مطبوع على ألا يعلق قيمته فى معارض الفخر والمباهاة على رأى إنسان من النساء

أو من الرجال وهى شنشنة نعرفها من العقاد .

وأشعر أننى أسترسل فى أمر بدهى إذا ذهبت أستقصى العلامات والدلائل على أن « همامـًا » هو « العقاد » .

كان ذلك الحب فى ربيع حياته ، وكان هو ربيعاً متقلباً عاصفاً كهذا الفصل الذى نعانيه فى بلادنا المصرية ، كان « رياح الخماسين » التى قضت على جمال « شم النسيم » .

وانقضى الربيع بتقلباته وزوابعه ، وجاء بعده الصيف ، وأكبر الظن أن صاحبنا قضى صيف حياته على الشاطئ فى إجازة من الحب العميق ، مكتفياً بملاحظة عرائس البحر واستلطاف من يحلو له منهن ، دون أن يخوض معهن إلى أعماق الهوى ، ولا بأس مع ذلك من بعض الرشاش المتناثر الذى سرعان ما تجففه حرارة الشمس . يقول فى ديوان « وحى الأربعين » الذى أصدره فى هذه الفترة وقد بلغ سن الأربعين :

غفر الذنب من بكائى عليك　　أننى لا أعود ما عشت أبكى

لا يساوى ـ وقد تعلمت منك ـ　　نسل حوائكن دمعة شك

خير ما فى النساء ساعة ضحك

فهو يعلن توبته من البكاء على حبيبته وانه لن يعود إلى

مثلها ، فقد تعلم من تجربته أن المرأة لا تساوى دمعة شك ، وخير ما فيهن ساعة يضحك فيها مع إحداهن .

ثم أقبل الخريف وقد جاوز الخمسين من عمره وأقبلت معه نسمة لطيفة هبت عليه من فنانة معروفة علق بها وعلقت به على رغم الفارق الكبير بينهما فى السن ، والعجيب أن هذا الحب الخريفى أوحى إلى أديبنا الكبير أرق وأبدع ما قاله من الشعر الغزلى ، ونراه فيه قد هدأت ثورته التشككية ومال إلى التسامح فلم يبق مصراً على « سحر التفرد » كما كان فى حبه لـ « سارة » وقد ظهر هذا التسامح فى شعره من قبل إذ قال فى « وحى الأربعين » :

ماذا عليه إذا استوى   وإذا التوى ماذا عليه

فهو يقبل الحبيب على علاته : استوى أم التوى ، ويقول فى ديوان « أعاصير مغرب » الذى يدل اسمه على أنه نظم شعره وقت الغروب أى فى سن متأخرة .

أعفيك من حلية الوفاء   إنك أحلى من الوفاء
خونى ! فما أسهل التقصى   عندى وما أسهل الجزاء
وليس بالسهل فى حسابى   فقدك يا زينة النساء

وهو يحسن الظن بفتاته فيقول :

عجباً والدهـر لا يفـنى أعاجيب الحيـاة
مفـرق شـاب يشب الحب فى قلب فتـاة
شرك صـاد — ولم أنصـبه — صـياد البزاة

ويقول :

رأيت العجب العـاجب فى الدنيـا وما فيهـا
شـبابًا هام بالهـامة قد شـابت نواصيهـا

ويقول :

طفـلة تهفـو إلى الشيب أجـل ثم أجـل

ولعله بذلك ينزع إلى إرضاء اعتداده بنفسه ، الذى هو دأبه فى جميع أطوار حياته .

وهو لفرط حبه لنفسه يكاد يتغزل فى نفسه ، فإننا نراه فى الأبيات المتقدمة يقول إنه شب الحب فى قلب الفتاة ، وإنها هامت بهامته الشائبة ، وإنها تهفو إليه ، وذلك بدلا من أن يقول إنها هى التى شبت الحب فى قلبه . . . إلخ . وهذا يشبه ما قاله عمر بن أبى ربيعة وما نقده به ابن أبى عتيق ، وذلك أن عمر قال يحكى حديث الفتيات عنه :

قالت الكبرى : أتعرفن الفتى ؟
قالت الوسطى : نعم هذا عمر !
قالت الصغرى : وقد تيمتهـــا
قد عرفناه وهل يخفى القمر !

فقال له ابن أبي عتيق : أنت لم تنسب بها وإنما نسبت بنفسك .

ومن غزله البديع فى هذه الفترة قوله وقد أطلقت « صفارات الإنذار » فى خلال الحرب الأخيرة :

صوت النذير الذى أبقاك خائفة
على ذراعى قولى كيف أخشاه
أو البشير الذى يدعوك ثانية
إلى الطريق لعمرى كيف أرضاه
الحب والحرب واويلا ، قد اجتمعا
فى القلب فانقلبت أحوال دنياه

وقوله وقد أهدت إليه لفاعًا (كوفية) :

لفاعك فى عنقى كالوفاء يطوق جيد السميع المجيب
مكان ذراعيك أولى به نسيج يديك السخى القشيب
إذا فاتنى منك طيب العناق فسلواى منه بديل قريب
فلا أحرم الدفء عند اللقاء ولا أحرم الدفء عند المغيب

وأرى أن رقة غزله فى هذه الفترة إنما هى من أثر النار القديمة التى أنضجته . ومثل هذا الشعر ليس كثيراً فى دواوين العقاد . وأعتقد أن جيده يبلغ نحو العشر مما نظمه ، ولو أن هذا العشر عرض وحده على الناس لاعترف له بالشاعرية من ينكرها عليه . وإن نسبة كبيرة من جيده يستغرقها الحب والغزل .

محمود تيمور

« إن الحب ليس إلا وليمة فاخرة من ولائم الحياة ،
وما المرأة إلا اللون الشهى من ألوان الطعام فيها » .

هكذا يعرف لنا الحب ، الأستاذ محمود تيمور ، فهل عمل هو بحكمته وانتفع برأيه فأقبل على وليمة الحب فتناول منها ما لذ وطاب من النساء ؟ . . .

لقد حفلت أقاصيصه ورواياته بالحب ولذائذه ولواعجه وأشواقه ، فهل هى موائد قضم فيها وهضم ، أم هى ألوان عزت عليه ، أو لم تتح له ، فأراد أن يحقق فى الخيال ما حرمه فى الواقع . . . أم هو يمثل ويندمج فيما يمثل مستغلا فى هذا الاندماج مشاهداته ومسموعاته ؟

إننا نرى تيمور يجول فى كثير من نواحى الحياة والمجتمع البعيدة عن حياته الأصيلة وبيئته التى نشأ فيها ، ويقدم لنا فنوناً من صورها ، معتمداً فى تصويرها على مرئياته وتأملاته .

ومحمود تيمور هو ابن أحمد تيمور باشا ، ولكنه مع ذلك « أرستقراطى فلاح » وهذا هو عنوان مقال كتبه عنه المستشرق

الروسى « كراتشكوفسكى » ، ساق فيه ما دار بينه وبين ماسح أحذية فى محطة « عين شمس » ، إذ كان « كراتشكوفسكى » يبغى زيارة تيمور باشا فى منزله هناك . قال ماسح الأحذية للمستشرق :

إننى أعرف الباشا ، وأعرف أولاده . . . إنهم فلاحون بمعنى الكلمة ! إذا اجتمعت نساء القرية ، اللائى يحملن العجين لخبزه فى الفرن أحاطوا بهن كالهالة ، لسماع أناشيدهن الريفية ، إنها تروق فى نظرهم ، وتجلب السرور إلى نفوسهم ، فيجلسون هادئين كأن على رؤوسهم الطير ، وجميع الفلاحات يقدمن إليهم فطيراً طريـاً كما يفعلن عادة مع أولادهن . وإذا ما جاء وقت الأصيل ، والتأم الأولاد فى الجرن للعب الكرة ، أقبل أبناء الباشا ، واشتركوا معهم ضاحكين صائحين مسرورين . . . حقـاً إنهم فلاحون !

فمحمود تيمور إذن أحد إخوة أرستقراطيي المنبت ، ولكنهم يميلون إلى حياة أخرى طريفة غير حياتهم المملولة ، ثم نرى أحد هؤلاء الإخوة وهو محمد تيمور ، يعود من أوربا مشبعاً بأفكار جديدة ترمى إلى إنشاء أدب مصرى مبتكر يستملى وحيه من صميم البيئة ودخيلة النفوس ، ونرى أخاه محموداً يتأثر بآرائه ، فيتحول عما هو غارق فيه من أدب رومانسى ، يقرأه

ويتأثر به ويكتب على غراره ، إلى أدب مادته الحياة المصرية الجارية فى محيط الشعب المصرى .

وعلى ذلك الأساس ، وطبقاً لذلك الميل وهذا الاتجاه ، نرى محمود تيمور يأخذ فى حياته دور « السندباد » وفى أدبه دور « الممثل » فهو يجول ويطوف ويعاشر ، ويدرس ويقرأ ثم يخلط مشاهداته ومسموعاته ومقروءاته بمشاعره وأحداثه الخاصة ويصعد إلى خشبة المسرح مندمجاً فيما يؤدى من أدوار .

ولعل الحب ، أو هو على التحقيق غير مسبوق بلعل ، أكثر أمور الحياة حاجة إلى معاناة الكاتب الذى يعرض له ويتناوله بالوصف . ولا بأس بإيراد هذا البيت المشهور ، على كرهى لهذه الطريقة التى كانت تعجب أساتذتنا فى الإنشاء المدرسى ، وهو :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

ولا يخفى علىّ سؤال يدور برأسك الآن ، وهو : هل محمود تيمور ، فيما كتب عن أشخاص قصصه المحبين ، إنما كان رحالة « سندباداً » يسمع ويرى ثم يصف ويصور . . . أو ممثلا يبحث عن أهل الهوى ليشاهدهم يتحابون كى يندمج فى دور المغرم الولهان وهو يكتب عنه ؟ . . . إننى لأعتقد

ذلك ، وقد أرادنى هو على أن أعتقده . . . وما أراه فى محاولة حملى على هذا الاعتقاد إلا « ضنيناً بنفسه أن تلحقه من ذلك تبعة . . . » فقد صور ما صور من حبه متنصلا منه ، ناثراً أشتاته على شخصيات قصصه ، محتمياً وراءهم ملقياً عليهم تبعته . . .

وذلك لأن محمود تيمور يعيش مشدوداً بين مقتضيات بيئته الأرستقراطية التى ينحسر ظلها عن أدبه وتفرض عليه طقوساً من رسمياتها ، وبين ميوله الديمقراطية التى يتخذها مذهباً فى الأدب ، أضف إلى هذا أنه نشأ فى أسرة محافظة تضن بأفرادها على التبذل أو ما تعتبره تبذلا .

حدثته عما لاح لى فى قصته « شباب وغانيات » من ظلال شخصيته وقلت له : إن فيها حادث حب لك . . . فنفى ذلك وأمعن فى النفى ليبرئ ذمته مما وقع من بطلها الذى أعنيه . . . وأنا برغم هذا أتشبث بهذه القصة فى هذا الموضوع ، لا أريد أن أفلتها . . . فسامى ، أو جزء من سامى ، هو أديبنا الكبير فى صغره ، وأنا أعلم أن الكاتب القصصى لا بد له أن يمزج تجاربه بخياله ، بل إن الخيال نفسه يتركب من تجارب مختلفة ، ومن أحداث خاصة ومسموعات ومشاهدات يصهرها كلها فى بوتقه لينتج منها مركباً حيًّا هو القصة ، ونحن الآن

بصدد تحليل هذا المركب فى قصة « شباب وغانيات » .

الجزء الذى يخص صاحبنا من سامى هو حبه لفتحية . . .

وهى فى القصة ابنة ضابط المدرسة التى كان سامى تلميذاً بها . دعاه الضابط إلى منزله ، فذهب معه إليه فى مركبته ، مركبة سامى . وجعل سامى يشارك فتحية فى قرص الجحش « سرحان » ثم يتبادلان ركوبه فى فناء الدار . وفى اليوم التالى وجد نفسه يقول لسائق المركبة :

مل بنا إلى بيت الضابط لأرى الجحش « سرحان » .

وابتسم السائق « مدبولى » وفرقع بسوطه وقال : أمرك يا سامى بك !

وتكررت زيارته لبيت الضابط ، وتوثقت العلاقة بين الصغيرين . وفى القصة شخصية طيبة ذات ميول ديمقراطية هى « مودة هانم » زوجة الأخ الأكبر لسامى الذى يتخذها كأم له ، وتمتد الصلة بين فتحية وسامى إلى جدة فتحية ومودة هانم ، فتنشأ بين الأسرتين صداقة تقوم على تعاطف بين السيدتين ، وتعاطف من نوع آخر بين الفتى والفتاة اللذين كبرا على مر الزمن .

ثم نرى الفتى مشدوداً بين فتحية وفتاة أخرى أرستقراطية فيها صلف وزهو من إسطنبول . . . وهنا تظهر بعض الملامح

المعنوية فى شخصية تيمور . فتى فنان الطبع تدفعه إنسانية طيبة إلى تجاوز مراسيم البيئة . يضيق سامى بالفتاة المزهوة « تهانى » ويغضب من احتقارها وتعريضها بفتحية وجوربها الشعبى المقلوب . . . وهو يشعر بشىء من اللذة فى صحبة تهانى ، ولكن حبه لفتحية يدفعه إلى زجر تهانى ، وإن كان زجراً عجيباً . . . فهو يراها تصب على رأس فتحية أرذل النعوت والأوصاف ، فيقول لها : كفى يا تهانى ! ثم يقف ويحدق فيها ، وعاصفة الغضب تزلزل كيانه ، ويدور رأسه ، ثم يهجم على تهانى . . . فيحتويها بين ذراعيه ويندفع فى تقبيل فمها كأنه يمزقه تمزيقاً ! وبعد هذا العقاب الصارم . . . تولى عنها يبحث عن حبيبته فتحية !

وعلى أى حال فقد آثر سامى فتحية بحبه الصادق ، وانتصرت الإنسانية المتواضعة الطيبة على الصلف الثعبانى المزهو..

ثم هذا الخجل وقلة الحيلة اللذان يستفزان الخادمة « أم خضير » فى مخدومها الشاب اليافع ، إذ تراه يعامل فتحية بمقتضيات الغرام والهيام التى تفهمها ، فلا تملك إلا أن تهوى على أذنه بفمها تهمس له : إذا جاءتك فأغلق الباب عليكما دون أن تشعرها بأنك تفعل . . . لا تضع الفرصة يا أبله !

وعند ما تغضب فتحية ، إذ ترى سامى مع تهانى ، وتختفى

فى القصر ويبحث عنها سامى – تسرع أم خضير بإحضار فتحية إلى سامى وتقول : فتحية لها عندنا مقام كبير . إنها صاحبة البيت ، ورضاها أمر لا بد منه مالنا وللضيف الدخيل الذى ليس منا وليس له فى قلبنا مكان ! ثم تهيب المرأة بسامى قائلة : تقدم لتصالحها .

هاتان الصفتان ، الخجل وقلة الحيلة ، سنرى بعد قليل أثرهما العجيب فى مواقف الحب بقصص تيمور .

وذلك القصر الذى كان فى القصة مسرحاً للمعابثات والمواثبات والمغامرات بين سامى وفتحية ، وبينه وبين تهانى . . . أى قصر هو ؟ يقول لنا المؤلف : إنه منزل الأسرة – أسرة سامى – الكبير بالحمزاوى ، ويصفه بأنه كان أشبه بالقلعة العتيقة ، له سور شاهق ومخابئ مرهوبة ويذخر بأثاث فخم تحتويه حجرات رحيبة ذات سقوف عالية تملأ النفس من روعة وجلال . . . إلخ .

وكان المنزل الكبير لأسرة قصاصنا الكبير فى درب سعادة بالقاهرة ، وهناك أمر دقيق يعرفه كل قصاص لأنه يزاوله ، ذلك أنه عند ما يريد أن يغير الأسماء أو المعالم يختار لها – بدافع الرغبة فى الدنو من الواقع – أقرب الأشياء إليها وأشبهها بها ، ودرب سعادة والحمزاوى من الأحياء المتشابهة فى القاهرة العريقة .

وقد رأيت له قطعة من الشعر المنثور عنوانها « القصر الصامت » نشرت بجريدة « السفور » يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٩١٦ بتوقيع « محمود تيمور بالزراعة العليا » يناجى فيها ذلك القصر مناجاة تدل على ما كان له فيه من ذكريات غرامية . وقد بدأ محمود تيمور كتابته الأدبية بالشعر المنثور ، وعند ما تحول إلى القصة عالجها على طريقة شعرية خيالية . . . ولعل أول قصة كتبها هى قصة عنوانها « الحب بين دمعة اليأس وقبلة الأمل » نشرت بالسفور يوم ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١٦ ، وهو يسوق فيها — على لسان الكاتب — حادث حب لا يمكن أن يقع على ظهر الأرض . . . فقد شاهد الحبيبة فى حديقة ، ثم نظرت إليه وسارت فى طريقها ، فنزلت من عينه « دمعة الحب الأولى » ثم رآها ثانية وكانت تقرأ فى كتاب فلما علمت أنه لاحظ أنها لا تقلب الصفحة لشرودها أطرقت تمسح دمعة حبها الأولى . . . وجمع بينهما الألم والحزن . . . فتحابا ، وأراد أن يقبل جبينها فأخطأ فى الظلام ووقع فمه على فمها بقبلة الأمل . . . وبكى ، وبكت ، وحزن ، وحزنت ، لا لسبب إلا لأن النزعة الغالبة على الأدب وقتذاك كانت نزعة خيالية رومانسية حزينة تتهم صروف الزمن وغِيَر الدهر ظلماً بالعدوان على الأديب وصبغ حياته بألوان من الأسى واليأس والألم .

ولا شك أن المدى البعيد بين القصة الأولى لتيمور وبين ما أنتجه بعدها من روائع القصص ، يشجع أى ناشئ موهوب فى القصة ويبشره بمستقبل باسم . . .

وقد قلت إن محمود تيمور فى حبه الأول هو جزء من سامى بطل « شباب وغانيات » ومعنى هذا أن عملية الخيال وتركيب الوقائع فى القصة مزجت هذا الجزء بالأجزاء الأخرى التى لا تلائم شخصية كاتبنا ذى النزعة الإنسانية الطيبة ، الخجول قليل الحيلة ، فأنا أفرض أنه أحب فتاة فى مثل ظروف فتحية ، وأنه استخدم هذا الحب فى تكوين جو يُغلب فيه الفتى على أمره ، ويحال بين حبه وبين مجراه الطبيعى ، فيندفع فى الغبث إلى أقصى حد ، ثم ينتهى إلى الاشمئزاز من العبث والرجوع إلى طبيعته الطيبة فى آخر الأمر .

لم يكن كما فى الأجزاء الأخرى من سامى عابثاً ماجناً فاجراً . وهنا أصل إلى نقطة مهمة ألحظها فى فن تيمور . . . إنه يصور المواقف العارمة فى الحب أقوى تصوير ، ويميط اللثام فيها عن الدوافع الغريزية ، ويرسم الطريق رسماً مؤدياً إلى الغاية . وليست شخصية الكاتب فى واقعها على شىء من ذلك ، فهو فى هذه التصورات والتصويرات التفصيلية لا يصدر عن تجربة ولا يعبر عن واقع .

إن تيمور فى هذا المجال يزاول تعويضاً نفسيـًّا ، فهو خجول يضيق بخجله ويثور به فى فنه فيناقضه بالوصف المتخيل، وهو لخجله قليل الحيلة ، يفوته فى واقع الحياة أن يفعل كذا وكذا ، فعندما يتناول القلم يسطر به ما فاته وما استعصى عليه من ضروب الحيل . ونرى له شغفاً فى بناء القصة القصيرة بتتبع الأسباب وتهيئة المقدمات التى تفضى إلى الحب والمواقف المشبوبة بين المحبين . وهو يجيد فى ذلك كل الإجادة ، وأحسب أن محاولة « التعويض » هنا أقوى من وصف الواقع ، لأنها تصدر عن قوة نفسية واقعة ، ولعله أيضاً شعر بالإخفاق فى القصة الأولى ، التى أهملها وظن أنه تركها فى زاوية النسيان بجريدة السفور ، من حيث لم يستطع أن يجعل الحبيبين يتلاقيان إلا عن طريق دمعة منه ودمعة منها لا داعى لهما . . . فعمل على أن يجيد تقويم مثل هذه المواقف فى قصصه ، وقد فعل .

ومحمود تيمور رجل وديع هادئ لطيف فى واقع حياته ، ولكنه يرى أن العنف بالمرأة بل ضربها ، يستدعى محبتها ، كما نرى ذلك فى قصة « ضرب الحبيب » التى جعل فيها الشاب يضرب الفتاة ضرباً ينتهى بها إلى الفناء فى أحضانه . ويقول لنا فى كتاب « عطر ودخان » على لسان « عم حسنين »

بائع العصى : « إن الناس إذا ضربوا ونالوا من الضرب قسطهم فقد أخلوا صدورهم من الأحقاد والعداوات ، فتصفوا النفوس وتهيأ للمحبة والسلام . ألم تسمع المثل القائل : لا محبة إلا بعد عداوة ؟ أو على الأصح لا مودة إلا بعد علقة « سخنة » ويروى على لسان عم حسنين أيضاً أن الخيزران الرقيق اللين لا يصلح للجنس اللطيف لأن من هذا الجنس من هى أحق بالتأديب بأغلظ العصى وأشدها إيقاعاً . . . إن من بينهن من يخفين خلف بشرتهن الناعمة ومظهرهن الأنيق قلوب الشياطين . إلى أن يقول عم حسنين :

« فى نظرى أن المرأة فى دخيلة نفسها تستعذب الضرب وبخاصة من يد رجلها الذى تحب . نصيحتى إليك أن تكون العصا لغة التفاهم بينك وبين صاحبتك إذا ما نشب بينكما نزاع . . . وثق أنك لن تسمعها إلا مترنمة بالمثل القائل : ضرب الحبيب كأكل الزبيب » .

و « عم حسنين » نفسه لا يحمل العصا ، كما يحدثنا عنه تيمور ، وهو يرى أنه لو كان يتخذها لما صار إلى ما هو فيه من رقة حال ، فالرجل ينصح بشىء مفقود فى حياته ويدافع عنه بتلك الحرارة ، وهو فى هذا مثل كاتبنا الكبير . . . أو قل هو كاتبنا الكبير يتقمص شخصية عم حسنين . . .

فإن محمود تيمور يميل فى كتابته إلى أن ينفض عن نفسه تبعة بعض الأفكار التى تجول بخاطره ، فينسبها إلى شخصية فى قصة أو فى مقال ، ومن شخصياته فى المقالات « عزوز » الذى يزعمه صديقاً يكاتبه ويجادله ، وذلك لأنه يشعر بوضعه الاجتماعى كأنه رقيب عليه ، وهو يخضع لهذا الرقيب ، ولكنه يتحايل فى الخروج على طاعته باسم الفن بحيث يبدو فى زى غيره .

كان محمود تيمور وشقيقه محمد تيمور يكتبان فى جريدة السفور ، ثم توليا أمر الجريدة ، وخاضا غمار الصحافة ، وهنا تدخل الوضع الاجتماعى ، وكانت الصحافة فى ذلك الوقت كالتمثيل يعد الاشتغال بها غير لائق بأبناء البيوتات ، ومن هذا القبيل ما حدث قبل ذلك للشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد عند ما تزوج ابنة السادات فرفع أهلها قضية يطلبون التفريق بينهما لأن الزوج صحفى وهو غير كفء لذات النسب والحسب . . .

ولم يرض أحمد تيمور باشا عن اشتغال ولديه بالصحافة ، وخطب محمود ابنة سعيد ذو الفقار باشا ، فعزز والده رأيه وعزمه على منع ولديه عن الصحافة بالصهر الجديد فاجتمع رأى الرجلين الكبيرين على التأثير فى محمود ، ومن وراء الرجلين

الخطيبة المحبوبة ولم يكن محمود رأى غير صورتها التى بعثت إلى خياله حبًّا شعريًّا على الطريقة الرومانسية، وإزاء هذا كله ترك الشابان الجريدة لمديرها عبد الحميد حمدى .

ومن خلال ذلك يطل علينا حب جديد فى حياة محمود تيمور ، يبدأ بالصورة والخيال ثم يتوطد بعد عقد الزواج فى فترة ما قبل الزفاف ، وتستمر هذه الفترة نحو ثلاث سنوات يلتقى فيها العروسان ويتنزهان ، ثم يعود كل منهما إلى داره يحلم بالسعادة فى العش المأمول ، ثم يتزوج محمود فى سن مبكرة : بعد العشرين ، ويستقر حب الزوجين فى هدوء يصطبغ به كل زواج كريم تسوده المودة والتقدير .

فمحمود تيمور إذن قد أحب وعرف الشوق وعانى الصبابة ما فى ذلك شك ، وكان هذا هو الجذوة التى قبس منها والمحور الذى دارت عليه كتابته فى الحب ، وقد أضاف إلى تجربته ما وقع تحت حسه مما شاهد أو سمع أو تخيل ، فقد استعان فيما تخيله بنقيض ما فقده فى حياته على نحو ما بينت فيما سبق .

ولعل زواجه المبكر وضع حدًّا للمغامرات فى الحب ، ولكننا نراه مرة أخرى ينزع إلى تجديد حركة الحب فى الفن ليعوض به السكون فى وقع الحياة ، ها هو ذا فى قصة

« ملاريا الحب » يتقمص شخصية طبيب ينصرف من عيادته في سيارته وإذا هو بعد قليل يحس حركة في السيارة فيلتفت ويضيء المصباح ، فيرى يدين تظهران من تحت معطفه الذي كان في السيارة ، ثم ساعدين بيضاوين ، ثم يطالعه وجه حسناء . . . وإذا هو يسمعها تقول في نغمة راعشة : إلى أين تريد أن تذهب بي يا سيدي ؟

وتحكي له الحسناء قصتها التي تتلخص في أنها أحبت رجلا وأحبها ، ثم تزوجا ، ثم دب الشقاق بينهما ، وتبينت حقيقته السيئة التي كان يخفيها بالخداع ، ثم افترقا بالطلاق . وفي هذا اليوم تلقت منه بطاقة كتب إليها فيها أنه مريض مشرف على الموت ويطمع أن يزود عينيه بنظرة وداع . . . فعاودها الشوق القديم وأسرعت إليه في أول سيارة لقيتها دون أن تغير ثيابها المنزلية . . . وإذا هي تراه يتوسط حجرته مكتمل الصحة يتوقد مرحاً ، وإلى جانبه مائدة تتزاحم عليها أكواب الشراب وصحاف الطعام ، فاستقبلها ثملا يتمايل والكأس في يمينه ، فأطارت الكأس من يده بصفعة اختلج لها وترنح ، وخرجت من مسكنه تعدو لا تكاد تتبين طريقها وما رأت سيارة الطبيب حتى دخلت فيها .

وتقول الحسناء للطبيب وهما في الطريق إلى مصر الجديدة

حيث يقع منزلها ، وقد أراد أن يوصلها إليه ، إنها تريد أن تشغل وقتها بأى عمل فيقول لها :

ـ المرأة لم تخلق إلا لأمر واحد .

ـ وما هو ؟

ـ إنها خلقت للحب !

ـ الحب ؟ !

ـ الحب وظيفة المرأة ، وظيفتها الأولى فى المجتمع .

ـ وإذا كان هذا الحب أصل بلائها وجحيم حياتها ، لم تنل منه غير الخيبة والإذلال فماذا تصنع ؟

ـ تبحث عن حب آخر . . . حب جديد يحل محل الحب القديم ويطارده . . . لا يفل الحب غير الحب ! ألم تسمعى قول الشاعر : وداونى بالتى كانت هى الداء .

ـ وإذا أصابها الإخفاق فى الحب الجديد ؟

ـ تبحث عن سواه .

ـ وهكذا . . .

ـ نعم ، الحب ، الحب دائماً . الحب فى حياة المرأة عنصر لا يقل خطراً عن الماء والهواء بل إنه ليفوقهما . . . إنه عنصر الحياة الأولى .

ثم نرى الطبيب الذى تقمص صاحبنا شخصيته يوصل

تلك الحسناء ، لا إلى منزلها بسيارته ، بل إلى قلبه . . . بهذا الحوار الذى امتد إلى الغزل و بما تدسس إلى مشاعره منها ومن كلامها المنغم الراعش . . . كما أوصل نفسه إلى قلبها . . .

وفى هذه القصة نلمح رأى الكاتب فى الحب ، ودلالة هذا الرأى على القلب المتجدد الشوق ، والطبيعة الإنسانية لا تختلف بين الرجل والمرأة ونحن — كقراء — لا نستطيع أن نجزم بأن حادثة القصة وقعت للكاتب أو تخيلها ، أو سمعها ، أو رآها ، ولكننا ، كنقاد إن لم نجد ما يدل على شىء من ذلك فإننا على الأقل نستطيع أن نستخلص منها دلالات تتعلق بنفس الكاتب وفكره ومشاعره .

فى القصة أن الفتاة الحسناء تعرف من حديثها مع الطبيب أنه الدكتور شهدى الذى تقرأ له فى الصحف والمجلات أبحاثاً طبية وأنها معجبة بما يكتبه وخاصة بحثه فى « الملاريا » وذلك فى حوار بينهما طويل يتضمن شعور القارئ نحو الكاتب ، وأن الثانى يظل مجهولا عند الأول مهما يقرأ له ، حتى يتعرف به ، فإما أن ينهار الصرح الشامخ الذى كونه له فى نفسه ، وإما أن يزداد تمكناً وشموخاً . . . إلخ

وذلك أحرى بأن يكون بين القارئ وبين الكاتب الأديب ، أما الطبيب الذى يكتب بعض الفصول فى الطب فلا يبلغ أمره

ذلك الجو الموصوف فى القصة . وعلى هذا أقول بأن فى القصة هذا الظل من الكاتب نفسه قد يكون ركبه مع الخيال ، وربما لا يكون . . . ولكن الأمر الذى لا شك فيه أن جرثومة « ملاريا الحب » — على ما يرى تيمور إذا أصابت أحداً مرة أو عدة مرات فإنها لا تعتبر مصلا واقياً منها بعد ذلك .

أحمد حسن الزيات

كان أحمد حسن الزيات ، عند ما غزا قلبه الحب الأول ، فتى فى السابعة عشرة من عمره قد عاد من الأزهر ، إلى قريته « كفر دميرة القديم » حيث يقضى العطلة الصيفية .

وكفر دميرة القديم ، قرية من ضواحى المنصورة حيث يعيش الجمال فى الإنسان والطبيعة ، وما يبعثه الجمال فى النفوس من شاعرية ، وما تلابسه الشاعرية من رقة وظرف وعذوبة . وكان فتاناً على شىء من الوسامة والجمال ، وقد وصف نفسه متقمصاً شخصية روائية فى قصته « رجلان وامرأة » التى نشرت بمجلة « الرواية » فى عهدها الأخير ، قال : « ولعل أظهر ما يميزه حياؤه المفرط وصمته الطويل ، فأكثر ما يجيب عن أكثر ما يسمع ابتسامة حييه ، فإذا نطق رمى بالكلمة أو الكلمتين فى خفوت وحذر ، فتذهبان فى ضجة الحديث كما تذهب النسمة اللينة فى الدغل الشاجن ، أو القطرة العذبة فى الموج الصاخب ، فيزداد امتعاضاً وانقباضاً ووحشة ، ومن العجيب أن حياءه كان يغرى به النساء ، لأنه كان حياء من نوع

غريب ، لا ينم عن ذلة أو ضعة أو جبن ، وإنما ينم عن حشمة فيها عزة ، وعن رقة فيها ترفع ، وعن طيبة فيها شجاعة ، فكان النساء يفهمن هذا الحياء على غير معناه : يحسبنه استخفافاً وراءه كبر ، أو انصرافاً تحته سر ، والمرأة يهين دلالها الكبر فتريد قهره ، ويثير فضولها السر فتحاول كشفه . لذلك كانت يفاعته وشبيبته موجات من حبهن الجرىء ، تتعاقب عاتية على قلبه البرىء » .

ونعود بعد ذلك إلى صاحبنا فى مرحلة اليفاعة ، حين هبت أول موجة عاتية على قلبه الذى كان هو أيضاً فى ذلك الوقت عاتياً ، إنه فى مقتبل شبابه ، ليس من شأنه أن ينتظر فضول النساء وما يثيره فيهن حياؤه من أى نوع كان . وفتاته . . . لم يكن يعنيها كبر فتقهره ، ولم يكن يثير فضولها سر فتحاول أن تكشفه . إنما هى بنت ساذجة فى عمر البدر . . . فى الرابعة عشرة . . . إحدى جانيات القطن فى حقلهم يصفها فى قصة « الغرام الأول » فيقول :

« تمتاز بحلاوة الصوت ولطافة الروح وقوة الجاذبية ، وكان منبع الجاذبية فيها عينين حوراوين تشعان الفتنة من خلال أهدابهما الوطف ، وفماً رقيق الشفتين نضيد الثنايا جميل الافترار ، وصوتاً لطيف الغنة حلو النبرات فضى الرنين ونفساً رزينة الطبع

رقيقة الشعور هادئة الشعاع .

أحس إزاءها بحب عارم عبر عنه بأنه شيء خفى قوى لا يجهله لأنه ملء الشعور ، ولا يعلمه لأنه فوق المعرفة .

هذا هو الفتى الأزهرى الأنيق الوسيم ، الذى عاد إلى أحضان الطبيعة الرءوم ، يحوم بطبيعته الشعرية بين الحقول كالفراش ، هذا هو يشارك فى عمل هين بالحقل ، يرقب عمل البنات فى جمع القطن ويسجل أسماءهن ، وفى الوقت نفسه يروى مشاعره الظامئة من الجمال ، ويسمع غناء الفتيات عند ما يقبل عليهن :

يابدر لما جيت — كانت ضلام نورت

هذا هو جالساً تحت الظلة عند مفارش القطن المجموع ، والبنات يأتين ويضعن ما يثقل حجورهن من القطن ، وهذه « نور » التى ملأت شعوره بالشىء الخفى القوى ، تأتى وحدها وتحل نطاقها على المفرش ، ثم تفرط حجرها وهى خاشعة الطرف باسمة ، فيستدعى حديثها ، فلا تنبس ، فيطلب منها جرة الماء ، فتجىء بها على استحياء . لم يكن به عطش وإنما تعلل بطلب الماء ، عساه أن يبلل حرقة فى قلبه .

وانقضى موسم الجنى ، وكادت الأسباب أن تنقطع بين الحبيبين ، إذ غلب على الفتى حياؤه الذى جبل عليه ، فلم

يكن له من حيلة فى أن يراها إلا أن يمر ببابها ، أو يسير فى طريقها ليلمحها راكبة فوق حمل البرسيم على حمار ، فيخالسها النظر ويسرق منها ابتسامة ويمضى فى طريقه .

واهتدت الفتاة إلى حيلة . . . عصبت عينيها بمنديل أسود ، وقصدت إلى بيت الفتى وكانت فيه صيدلية صغيرة تحتوى على « قطرة الزنك » جعلت لمن يشاء من أهل القرية ، وكان يتولى هذا العمل الخيرى الفتى أو أحد إخوته .

ــ أهلا وسهلا . . . سلامة عينك يا نور !

ــ الله يسلمك ! عاوزه أحط « أطره » .

دخل بها المنظرة وأجلسها بجانبه على الكنبة ونظر فى عينيها ، فرآها محتقنة ، فسألها عن السبب ، فقالت إنها حكتها عامدة بالتوتيا الخضراء .

ــ ولماذا ؟

ــ كده !

ــ كده ليه ؟

ــ أهو كده !

وندعه يقول لنا هو :

« فضحكتُ وضحكتْ . ثم أملتُ رأسها الصغير على ركبتى ، ووضعت كفى على وجنتيها وأناملى على خديها ،

وطفقت أنظر من هذا القرب إلى هذا الجمال الذى شغفنى وشغلنى ، وهذه هى العين التى ترسل السحر حيث ترسل النظر ، وهذا هو الثغر الذى يفتر عن المفاتن كما يفتر عن الدرر ، وهذا كله هو المحيا الذى يشرق فى قلبى الناشئ إشراق الأمل ويتحدث فى نفسى الغضة حديث الصبابة . وأردت أن أحجز تيار الهوى عن الوضع الذى نحن فيه ، فملأت القطارة وهممت أن أفتح عينيها ، ولكنها نهضت مذعورة وهى تضحك وتقول : "لا . . . لا ، عينى سليمة ، مفيش لزوم . "

وظل الحبيبان يمثلان دورى طبيب العيون ومريضته . . . أسبوعاً ، يلتقيان فلا يكون بينهما إلا حديث عام يرضيان به حياءهما ويزورانه على فؤاديهما ، ثم يفترقان وفى صدر كل منهما سعير من الوجد يذيب الحشا ويرمض الجوانح ! ! ثم خشيت نور فضول العذال من طول التردد على حبيبها الدكتور . . . فأمرت عينها أن تبرأ ! فبرئت العين ، وأصيب القلبان بنار البعاد .

وجاء الدور على الفتى كى يحتال . . . تذرع بصداقة أخيها ، وأنتجت الصداقة نتيجتها المقصودة فصار يذهب إلى صديقه ويقضى الأماسى بين أمه وزوجته وأخته . . . على فرن القاعة الدافئ . . .

ولما حان موعد الرحيل إلى القاهرة أفضى إلى أمها بذات نفسه ، ورجاها أن تزود الخطاب عن نور ريثما يعود .

ولكن القاهرة أفسحت له منافذ أخرى غير الحب ، منافذ فى دروس الأدب بالأزهر يتلقاها مع صديقيه طه حسين ومحمود الزناتى ، وفى دار الكتب المصرية ، وفى الجامعة القديمة ، وفى الصحف ، وفى الحدائق ، ومعالم المدينة التى يرتادها أعضاء المثلث « طه حسين والزيات والزناتى » ثم يعودون إلى البيئة الأزهرية ويقارنون بين ما يرون هنا وهناك ، ويستطرفون بالفوارق بين الحياة المدنية والحياة الأزهرية فى ذلك الحين .

كل تلك الشواغل قطعته عن القرية ، فصار لا يزورها إلا لماما ، ووسعت مسافة الخلف بين طريقه وطريق نور ، فسار فى طريقه ذاك ، ولم يكن لنور إلا طريق الزواج من أحد القرويين .

وقد كتب الزيات قصصاً عن حياة الريف ، فى بعضها حب ، ويخيل إلى أن فى قصة « جلاد الشيطان » صوراً من حبه سبق بها هنا قبل أن يكتب « الغرام الأول » فهو يقص على لسان البطل ما أحسبه أحس هو به فى خلال شوقه إلى نور . . . يحدثنا أنه — أو البطل — عند ما لا يستطيع أن يرى حبيبته يحاول أن يخفف برحاء الشوق عن قلبه العميد بالنظر

إلى حمارها وهو يتمرغ فى الحارة ، أو إلى كلبها وهو رابض على عتبة الباب ، أو إلى عِجْلتها وهى تمشى متئدة أمام أمها إلى الترعة . . . وذلك لأن الحب يصور له الأشخاص والأشياء على غير صورتها ، فهو حقيقة يرى حمارها أجمل الحمير ، وكلبها أظرف الكلاب وجاموستها ألطف الجاموس ! لأن فى كل حيوان من هؤلاء شيئاً منها جميلا محبوباً . . . وقد يزدرى هذه الخواطر والمشاعر خلى لم يذق فؤاده طعم الهوى ، أما المحب فإنه يقدر الإحساس بها حق قدره .

ولعبت الأحداث بالطالب أحمد حسن الزيات ، فقطعته عن الأزهر . ولما استيقن أن طريق « امتحان العالمية » أصبح ملغماً ضد أضلاع المثلث الثلاثة ، لما أبدوه من آراء لم يرتح لها الأزهريون ، لم يجازف بسلوكه ، كما جازف طه حسين ، وإنما أعرض عنه ، وسنحت له فرصة اللحاق بمدرسة الفرير مدرساً للغة العربية ، وساعده على النجاح فى هذا العمل ما كان قد أخذ به من الدراسات الأدبية ، والاتصال بالحياة العامة خارج الأزهر .

وبثت فيه هذه البيئة الفرنسية الجديدة ، روحاً جديداً ، وتعلم اللغة الفرنسية على يد أستاذ فرنسى بادله بها لغة عربية . ويحدثنا فى مقدمة « آلام فرتر » أنه قد هب عليه فى

تلك الفترة ، سنة ١٩١٩ ، « هوى دخيل وهادئ لكنه ملح »
وكان عندئذ ، كما يقول : « شابـًّا طريراً حصره الحياء والانقباض
والدرس ونمط التربية وطبيعة المجتمع ، فى حس مشبوب يتوقد
شعوراً بالجمال ، وقلب رغيب يحترق ظمأ إلى الحب » . والواقع
أن الزيات فى كل أطوار حياته يكاد يحصره الحياء والانقباض ..
الخ . ولكن هذه الأشياء كانت تحصره شابـًّا فى الحس المشبوب
والقلب المتحرق الظامئ إلى الحب . ولا شك أن وجدانه
الجديد الذى مازجته ولونته الثقافة والتجارب الجديدة — هذا
الوجدان قد أصبح فى حاجة إلى غذاء جديد غير نور التى
لم تذهب تماماً ، وإنما دفنت فى ضمير الشعور .

وكان الأديب — أى أديب — فى ذلك الوقت يشعر شعوراً
خياليـًّا « رومانسيـًّا » يمليه عليه ما يقرأ من ألوان الأدب الرومانسى
المسيطر ، ولا بد أن يكون له حبيب ولو فى الخيال ، يستمتع
بتمثله ، ويتعذب بهجره الدائم ، ويلعن الدهر لأنه لم يأت
إليه بالحبيب الذى لا وجود له . . . وقد تحرر الدهر ،
وأنصف ، ورُد إليه اعتباره ، منذ تحرر الأدباء من سلطان
تلك الرومانسيات .

على أن الزيات كان له حبيب خطفه منه خاطب ، إذ
تغلبت المادة والمنفعة على العاطفة والخيال .

فى هذا الظرف الذى أحس فيه باوعة المحب المغلوب على أمره قرأ رواية «آلام فرتر» لجوته الذى قال : «كل امرئ يأتى عليه حين من دهره يظن فيه أن" فرتر" إنما كتبت له خاصة.»

رأى فى القصة رجلا شديد الحس قوى العاطفة ، ورجلا آخر بارد الطبع عملى الفكر ، وامرأة بينهما يجذبها إلى الأول طبعها الغزلى وقلبها الشاعرى ويربطها بالثانى عقلها المادى ، هو نفس موضوعه . فترجم القصة مندمجاً فى جوها ، شاعراً بمواقفها ، وليس كل من يترجم يفعل ذلك . وهنا الفرق بين الترجمة الآلية والترجمة التى تعتبر عملا فنياً ، إذ يشترك المترجم مع المؤلف فى عواطفه وانفعالاته ، ويعبر باللغة التى يترجم إليها ، كما عبر المؤلف باللغة التى كتب بها .

وكان الزيات قبل ذلك يلتقى بصديق له أديب معروف يحب مغنية كبيرة ، وكان كل منهما يحدث الآخر عن آلامه ونشواته فى حبه . ثم خطر لهما أن يترجما رواية «غادة الكاميليا» وبدآ معاً . ولكن نظرية «توزيع الاختصاص» تدخلت فى الموضوع ، ولما كان حب الصديق الأديب يشبه حب غادة الكاميليا فقد تركه الزيات يغنى على ليلاه ، وعكف هو على «فرتر» ينشد هواه ، ويندب بلواه .

وقد ترجم الزيات بعد ذلك رواية «روفائيل» للامرتين ،

وهنا أيضاً نرى شبهاً بين حادثة هذه الرواية وحادثة حب آخر للزيات ، ولعل هذا الاتفاق بين الحادثتين هو الذى حمله هذه المرة أيضاً على الترجمة .

تقص علينا قصة « رجلان وامرأة » أن حافظ « الذى هو فى الحقيقة الزيات » الأديب المدرس الذى يناهز الثلاثين من عمره — وقد سبق وصفه — له صديق طبيب شاب « أمين » يحدث مخطوبته « عقيلة » عن صديقه ، وقد قرأت هى له وأعجبت به . ثم يزور حافظ عقيلة مع خاطبها أمين تلبية لرغبتها . ويسافر حافظ إلى باريس فى رحلة تستغرق عاماً ، هو العام الذى سافر فيه الأستاذ الزيات إلى باريس ليؤدى امتحان شهادة الحقوق الفرنسية بعد إتمام دراستها فى القاهرة .

وتبادل الصديقان الرسائل ، وذات يوم فض حافظ غلاف رسالة أمين فوجد إلى جانبها رسالة وردية أنيقة من عقيلة . . . وجرى التراسل بعد ذلك بينهم هكذا . . . رسالتان من حافظ ورسالتان إليه . . . ثم عاد حافظ ، واستأنف اللقاء مع الصديقين . وندع الزيات يقول لنا :

« وكانت الرسائل التى تبادلها الأصدقاء الثلاثة فى ثمانية وأربعين أسبوعاً قد أزالت من بينهم الكلفة ، وأطلعت كل واحد منهم على دخيلة الآخر ، فكانت عقيلة تطمئن إلى

الصديق كما تطمئن إلى الخاطب ، فتتبسط فى الكلام وتتساهل فى الدعابة ، وتحول التيار الكهربى حيث تشاء برفع الكبس من هنا ووضعه هناك ، فترى أن أثره فى الخشب غير أثره فى المعدن ، وأن فعله فى نفس أمين غير فعله فى نفس حافظ ، فتقبل بنفسها وحسها على الأديب أكثر مما تقبل بوجهها وقولها على الطبيب » .

وكان ذلك وما إلى ذلك فى الصيف بالإسكندرية ، فلما عادوا إلى القاهرة فكرت عقيلة حتى وجدت الوسيلة إلى أن تلقى حافظ كل يوم . طلبت من أبيها أن تتعلم اللغة الفرنسية وقالت له : إن لأمين صديقاً توفر حظه من هذه اللغة ، وقد قال أمين حين حدثته فى هذا الأمر إنه يضمن أن يعطينى صديقه كل يوم درساً من غير تحديد وقت ولا تقدير أجر .

قالت ذلك وهى لم تتحدث به إلى أمين ، لأنها تعلم أن « اللوح » لن يعارض فيما تريد .

وبدأت الدروس طبيعية فى أول الأمر ، ولكن عقيلة أخذت تتحدث بدلا من الفرنسية لغة الدرس ، بالعربية التى تواتيها فى الحديث عن أخبار الأسر ومغامرات الفتيات ، وكانت تدس فى ثنايا الحديث بعض المعانى الخاصة ، فيتجاهلها

المعلم ويصرفها بلباقته إلى المعانى العامة ، فتعود ، ويصرفها . . .
واستقبلته يوماً وهى تقول له : « اسمع يا أستاذى ! إن درس اليوم سآخذه فى الطريق ، فإن لى عند الخياطة فستاناً أريد أن أجربه ، وعند المصور صورة أحب أن أراها ، ولا تريد أمى أن أخرج وحدى ، فما رأيك ؟ ثم خرجا . . . وجلسا فى ركن منعزل من محل حلوى . . . وفتحت حقيبتها ، ومسحت شفتيها الرقيقتين بالمنديل ، ومرت عليهما بالأصبع الأحمر ، ثم أثبتت عينيها فى عينى معلمها ، واستأنفت حديثها إليه قائلة :

. . . إنك أذكى من أن أموه الحق عليك وأكتم ذات نفسى عنك . أنا منذ رأيتك استلطفتك ، فلما قرأتك أحببتك ، ولما خالطتك عشقتك ، ذوقك وذوقى متحدان ، وشعورى وشعورك متجاوبان ، وحظك وحظى متشابهان ، فلك زوجة لا تفهمك ، ولى خاطب لا يفهمنى ، ولا أدرى وقد فتحت لك قلبى ، وصارحتك بحبى ، أتستجيب لى أم تنبو علىّ ؟

ولكنه لم يستجب لها ، بل ذكرها بأنها مخطوبة وأنه متزوج وصديق أمين . وكان مما قاله لها :

« سمعتك تذكرين الحب وتفسرين به تلك العاطفة التى تجدينها فى قلبك لى ، وأنا أيضاً لا أكذبك قد شعرت بأن

نبتة من هذه الفصيلة الحمقاء قد نبتت فى قلبى لك ، ولكننى أحاول جاهداً أن أمنع عنها الغذاء والرى حتى تموت . لا أقبل أن أكون قطيعة قلبين أرجو أن أوكد بينهما الصلة ولا أكون شقاء صديق أريد أن أوفر له السعادة » .

والحقيقة أن النبتة التى نبتت فى قلبه كانت عاقلة . . . ولم تكن حمقاء . . . والدليل على عقلها الوافر ما يأتى :

ذهب إليها فى اليوم التالى ، إذ لم يشأ أن يغير عادته ، ليعالج الأمر بالحكمة واللين ، ولكنها لم تكد تخلو إليه فى المكتب حتى أمسكت كتفيه بيديها وهزتهما هزًّا رفيقاً ثم أدنت صدرها من صدره تريد أن تعانقه ، فردها بيديه ردًّا ليناً . . . وحاول أن يعالج الأمر بالحكمة واللين . . . ولكنها ضغطت بساعديها على ركبتيه وانحنت على يده وذراعه بالتقبيل واللثم وهى تقول فى نحيب وضراعة :

لا تفارقنى يا حافظ ! قل لى إنك تحبنى ! أنت أول من أحببت فلا تفجعنى فى حبى الأول !

ودخلت الخادمة بالقهوة فتظاهرت عقيلة بالإغماء ، وأخذ المعلم الحكيم يربت خدها ويدلك يدها . ثم جاءت أمها تحمل المنبهات وأخذت ابنتها على صدرها الرءوم . . . وتظاهرت عقيلة بأنها أفاقت ، فنقلتها أمها إلى الفراش ، وانتهى الدرس وانصرف المعلم.

ونحن فى هذه المرة نرى صاحبنا محبوباً ، تموت المحبة فى هواه ، ولا عجب فى هذا ، فهو شاب ناضج وسيم أنيق المظهر مستنير الفكر لبق الحديث فى حياء ، يجذب النساء المجربات ويثير فضولهن ، وقد كانت عقيلة فتاة مجربة . . . كانت آنسة مخطوبة ، ولكن كان لها جولات ومغامرات مع شبان أقنعتها التجربة معهم أنهم طلاب صيد يلهون به كما يلهو الطفل بالعصفور وقتاً ثم يدق عنقه . ثم قنعت بخطيبها الطيب الجامد البارد الذى يملأ العين بمنظره ولكنه لا يبعث فى القلب حرارة . فلما لاح لها صاحبنا وجدت فيه الحلقة المنشودة ، وجدت فيه الجولة الصادقة المتزنة والفؤاد الشاعر ، والمعدن الذى يفضل الخشب عند وضع الكبس . . . ولا نرى صاحبنا نفسه محبًّا لها بالمعنى الفنى للكلمة ، ولا نجد فى القصة شيئاً يؤيد ما قاله من أن نبتة حمقاء نبتت فى قلبه ، فقد كان صديقاً وفيًّا .

والواقع أن النبتة الحمقاء كانت فى الوقت نفسه لأخرى . . . هى الآنسة « فرناند » التى أحبها بباريس فى العام الذى سافر فيه .

سافر الزيات إلى باريس ليؤدى امتحان الحقوق الفرنسية ، وجلس فى قاعة الامتحان وراء زميلته « فرناند » وجلس الأستاذ

الممتحن على منصة عالية بعيدة عن الطلبة ، وكان يوجه نص السؤال جاداً ، لا يعيده ولا يخلطه بكلمة تفتح باب الإجابة لمن يغلق عليه ، وكان أيضاً لا ينظر إلى الطالب . وأطلق الأستاذ سهم السؤال إلى الآنسة المسكينة ... فاختلست نظرة إلى الطالب المصرى ، وأدرك صاحبنا أن معنى النظرة : الحقنى ! فأسر إليها بما فتح عليها المغلق .

ويظهر أن سهم الأستاذ الجاد المتجهم ، تحول بين الطالب والطالبة إلى سهم من سهام كيوبيد ... فحكت فرناند لوالدتها ما كان من شهامة الطالب المصرى ... وفى اليوم التالى كان صاحبنا فى منزل الفتاة يلبى الدعوة إلى تناول الشاى ...

وكانت فرناند جميلة ، وصورتها منشورة فى الجزء الثالث من « وحى الرسالة » مع مقال « من الذكريات الجميلة » وفى هذا المقال يحدثنا عن صداقته لفرناند وآرائها وذكائها وشوقها إلى الشرق ، وعن زيارتهما معاً لمحاريب الفن فى اللوفر والأوبرا وفرساى ، وكل ما قاله قريباً من موضوع الغرام أنه كان بينه وبينها بعد عودته « رسائل مسكية المداد وردية الورق ، تؤلف كتاباً من شعر القلب والعقل » .

ومرة أخرى ، وبعد أن جاوز الأديب الكبير طور الشباب ،

وأصبح صاحب الرسالة ، وبالتحديد سنة ١٩٤٥ ، نرى فتاة تحاول أن تصبيه . . . ولعلها بلغت شيئاً من ذلك ، فها هو ذا يدخل محل « جروبى » فى الساعة الخامسة من مساء يوم الخميس ١٠ مايو سنة ١٩٤٥ — كما يحدثنا فى « قصة فتاة » بالجزء الثالث من وحى الرسالة — ليبحث عن الآنسة (س) فى أول لقاء بينهما ، وكانت العلامة المتفق عليها أن يعرفها بها ، نسخة من مجلة الرسالة على المنضدة التى تجلس إليها ، فهو لم يـ بعد الفتاة التى كانت تراسله منذ عام ، وها هى ذى قد حددت موعد اللقاء بالتليفون . ويصف لنا بحثه عن المنضدة والفتاة والرسالة فى « جروبى » وصفاً ظريفاً ، إذ يقول :

« لو كنت حديد البصر لنفضت المكان من بعيد ، فعرفت على أى منضدة تنام الرسالة ، وفى أى كرسى تقعد الفتاة ، ولكن البصر كليل ، والمساء مقبل فلا مناص من الجولان المتهم بالفضول ، ولا بد من النظر القريب من اللمس . على أننى توخيت المناضد المنفردة فجعلت وجهى إليها ونظرى عليها ، فلم أخط غير قليل حتى رأيت منضدة صغيرة ، عليها يدان رقيقتان تقلبان الرسالة ، وكنت فى خروجى برؤيتها من ربكة المشى وحيرة النظر أشبه بالزورق العائم فى ظلام المحيط أبصر فى المرفأ ومض المنارة ، أو بالسائر التائه

فى مجال القفر سمع فى الواحة نبض الحياة » .

بدأت الفتاة تراسله فى عزبة أهلها فى الصعيد ، حيث كانت تعيش مع أخيها الأكبر بعد أن توفى والدهما ، وبعد أن قطعت عن المدرسة ، وكانت فى شبه عزلة عن الحياة أو عما تبغى من الحياة . بدأت رسائلها بأسلوب التلميذة الراغبة فى العلم ، ثم تطورت إلى صديقة طامعة فى المعونة ، ثم أصبح أسلوبها فى الطور الثالث أسلوب العاشقة الظامئة إلى الغزل ، بل صرحت بأنها لم تكن صادقة حين كتبت أول الأمر تطلب المعرفة أو تبغى النصيحة ، إنما أرادت أن تدخل فى وضح النهار على الكاتب من الباب العام ، وهى الآن تحسر برقع الرياء وتضع وجه المرأة أمام عين الرجل تقول له : ها أنا ذى لا أفكر إلا فى الحب ولا أحلم إلا بالحبيب ، ولقد اخترتك لتكون الحبيب النائى . . . ويقول الأستاذ الزيات إنه كان يرد على رسائلها الأولى فيرشدها ويسدى إليها النصيحة . فنراه مرة ثانية معلماً بالمراسلة ، بعد أن رأيناه مع عقيلة معلماً بالمشافهة ، وما أشبه الموقفين من بعض الوجوه .

وهو هنا يمسك عن الرد على الآنسة عند ما تكتب إليه : « يا حبيبى » يمسك هنا لأنه أستاذ كبير يخشى التبذل مع فتاة ، وقد كان يمسك عن مبادلة عقيلة الحب بدافع الوفاء

لصديقه ولكنه كان مشغولا بحب فرناند ، أو نقول باختصار : كانت نبتة قلبه معها عاقلة . . . أما هنا مع الآنسة (س) فلا أخليه من الاستلطاف والميل الذى لا يحد منه احتشام الأستاذ الكبير ، وهو أديب زاخر الحس شاعر النفس ومخصب الوجدان .

قصت الآنسة (س) على الأستاذ الزيات قصة فرارها من الصعيد بعد أن علم أخوها بمغامرة لها مع ابن البستانى فى عزبتهم ، وضربها علقة دامية ، وحرمها النزول إلى الحديقة وضيق عليها حتى أصبحت كسجينة الزنزانة . وقالت إنها نزلت عند أختها الكبرى فى منزل لهم موروث بحى المنيرة فى القاهرة .

وتكرر اللقاء بينهما ، وكان لقاؤهما الثانى فى مطعم الكورسال ، وتحدثا على الطعام حديثاً طليًّا جرها إلى أنشودتها الغرامية المعتادة ، ويقول لنا إنه استأنف نصحها وإرشادها فكان كمن يرقم على ماء أو ينفخ فى رماد .

وأنا لا أستطيع أن أبلع ذلك ، وقع أم لم يقع . . . يدعوها إلى المطعم فتقبل فى زينتها الكاملة وشنطة يدها المعلقة على كتفها قد تدلت فى فراغ الخصر واستقرت على الجانب . . . إلى آخر ما وصف ، ولم يصرح لنا كيف استعد هو أيضاً

« للرانديفو » وتعزف جوقة الموسيقى اللحن الذى يبعث النشوة . . .
ثم يلقى عليها درساً فى الوعظ والإرشاد ؟ ! هذا كله يقف فى
زورى لا أستطيع ازدراده مهما حاولت .

ويفتن قلم الزيات فى وصف مغامرات الآنسة (س) فى
القاهرة ، التى كانت تحدثه بها فى مقابلاتهما . والقلم يتحرر
حين يروى صاحبه عن غيره ، ولكنه يُقسَر على الاحتشام
فيما يختص بممسكه . . .

يحدثنا عن تلك المغامرات على لسان الفتاة التى تقول :
ما كان أدهشنى حين علمت من نفسى أنى فتانة بالطبع ،
خداعة بالفطرة ، ألاحظ فيصبو الشيخ ، وأفتر فيخف الحليم ،
وأشير فيعنو المتكبر ، وأطلب فيسخو البخيل ، وأقلب فى
كفى النفوس والقلوب فلا أجد نفساً تتأبه عن ضراعة ، ولا قلباً
يتأبى على امرأة !

وظلت تغوى الرجال ، وكانت تختار منهم المحامين
والصحفيين والممثلين ، لأنهم يحسنون الحديث ، ويجيدون
الكتابة ، ويجملون الواقع . وأخيراً لقيها الذئب فى زى شاب
صحفى وضىء الطلعة ظريف الهيئة بارع النكتة لطيف الدعابة ،
قادها ليلة إلى غرفته فى سطح منزل ، فأسقط لها التفاحة . . .
وينهى الزيات القصة بحضور الأخ إلى القاهرة وأخذ أخته

إلى العزبة بالصعيد ، ولا أحد يعلم مصيرها ، ثم يختمها بالعظة والعبرة ويقول : فهل يضطر الذين لا يزالون لسوء حظهم يغارون ، إلى أن يعودوا فيسألوا الله العصمة من ولادة البنات أو يقولوا كما كان يقول الجاهليون : وأد البنات من المكرمات ! !

هذا الختام الذى يوحى بكراهة ولادة البنات ، ويومئ إلى تسويغ الاضطرار إلى وأدهن ، إنما هو من رواسب النشأة الأولى ، تـغـفـّل الفكر الذى استنار ، والأديب الذى نضج ، والقلم الذى تحرر ، والشاب الحقوقى الذى أحب فرناند ، تغفل ذلك الختام كل هؤلاء وأفلت . . .

محمد فريد أبو حديد

قصة الحب فى أدب الأستاذ محمد فريد أبو حديد — وفى حياته كما سأبين فى هذا الموضوع — تدور حوادثها وعواطفها وخوالجها حول الصراع بين الطبقات .

هو واحد من جيل من الأدباء عاشوا فى ظروف اجتماعية حددتها لهم الفترة الزمنية التى نشأوا فيها ، وهم هؤلاء الذين نسميهم الآن « شيوخ الأدب » ، نشأوا فى الطبقة الوسطى فى زمن لم يكن يتيسر فيه التعليم ، على العموم ، لمن دون هذه الطبقة ، وكان المتعلمون من أبناء المتوسطين يعاشرون فى المدارس والمعاهد زملاءهم أبناء الطبقة العالية ، ويتولون بعد ذلك وظائف يشعرون فيها بالتميز والاستعلاء .

وكان الأدباء من بين أولئك المتعلمين بين جناحى طائر ، أحد الجناحين يجذبهم إلى أعلى حيث الجاه والسلطان ومودة ذوى الجاه والسلطان ، ويهوم بهم الجناح الآخر نحو المثل الإنسانية التى تمليها عليهم النزعة الأدبية فينعطفون نحو الطبقة المتواضعة من الشعب .

ولعلك تأخذ من هنا حدًّا ، لا أقول بأنه فاصل تماماً ، بين أدبٍ أولئك أصحابه وبين أدبٍ جدّ بعدهم أكثر انعطافاً ونطقاً باسم الناس الذين نطلق عليهم لفظ « الشعب » ، ولست أذهب ، ولا أحب لك أن تذهب ، إلى الغض من أدب أساتذتنا الشيوخ ، فهو أدب رائع خالد أدى رسالته كما أملتها عليه الحياة التى عاشها ومثلها خير تمثيل ، وإنما أنا بصدد المحاولة والاجتهاد فى تخطيط ملامح عامة .

وفريد أبو حديد من أكثر الشيوخ مطاوعة للجناح المهوم ، واتجاهاً نحو الجناح المهيض ، ويظهر ذلك بوضوح فى قصص حبه ، فقد أحب ، أول ما أحب ، فتاة بدوية حدثنا عنها فى قصته الطويلة « أزهار الشوك » وهو يتسمى فى هذه القصة باسم « فؤاد » كما يسمى فتاته الأعرابية الحسناء « تعويضة » والقصة يقوم التركيب الخيالى فيها على أساس واقعى من أشخاص عرفهم المؤلف وجو عاشه معهم .

فؤاد الذى أحب تعويضة هو محمد فريد أبو حديد ، وإن كان هناك اختلاف بينهما اقتضته الحبكة القصصية ، فالأول طالب فى السنة النهائية بكلية الحقوق ثم « وكيل نيابة » ووالده « الأفندى » كان فى شبابه موظفاً ثم غادر الوظيفة وآثر أن يعتزل فى الريف ، فاشترى قطعة من أرض بجوار قرية

« النجيلة » وبنى بها داراً أقام فيها مع زوجه ، ويقدم عليهما ولدهما الوحيد « فؤاد » إذا أتى الصيف . أما المؤلف فقد تخرج فى مدرسة المعلمين العليا ، ونشأ فى مدينة دمنهور ، وكان لوالده أرض فى تلك القرية ، فكان يتردد عليها ويختلط بأهلها .

كان الطالب الشاب يميل إلى تعويضة ويرتاح إلى مخاطبتها إياه بقولها : « يا حاج فؤاد » على طريقتها البدوية ، وكان من مباهج عطلته الصيفية أن يقضى كثيراً من وقته فى « غيطها » يساعدها فى قلع النجيل من الأرض وتحويل الماء من المساقى لرى خطوط القطن ، وكان يرنو إليها مأخوذاً وهى ترقص رقصة الأعراب فى « الصابية » حين يجتمع أهل العزبة فى الليالى القمرية ليعقدوا حلقة السمر بالفضاء المجاور لدار « الأفندى » .

ونرى فى هذا الحب الذى أحبه صاحبنا ، وفى حب بعده آخر ، وفى قصص حب أخرى كتبها سنعرض لها فى هذا الفصل ، نرى أن المحب لا يكاشف حبيبته بحبه ، بل يظل يرقبها ويخالطها ويرنو إليها فى ارتياح وإعجاب ، لا ينطق بكلمة تنم عن هواه ، وفى أكثر الأحوال يتحول الحب إلى صداقة ، فيكبت العاطفة الطاغية حتى تحطم فؤاده ، ثم يقيم الصداقة على أطلالها ، وهو يتحول إلى هذا الكبت بعد أن

تقف حواجز الاختلاف الطبقى فى سبيل العاطفة وتمنعها من أن تأخذ مجراها الطبيعى .

هذا هو يشعر أن علاقته بتعويضة صارت إلى جد لا لعب فيه ، ويرى أنه يذهب إليها فى الحقل بدافع لا يستطيع رده ، فإذا غادرها جعل يسترجع ألفاظها فى نفسه ويحاول أن يدرك ما تنطوى عليه . يشعر بذلك ويفكر هل يستطيع أن يسمو بها ويخلق منها . . . وهنا يتصدى له الحاجز الطبقى فلا يجرؤ على أن يضع كلمة « زوجة » بعد « يخلق منها . . . » ، فالوشم الذى يزين شفتها وذقنها قد خالط دمها فلا سبيل إلى محوه أبداً ، وهناك وشم آخر أعمق منه أثراً لأنه فى عقليتها وتفكيرها . . . إن الحديث بينهما إذا جاوز التحية والحقل والغنم يهوى إلى لا شىء . . . ومع ذلك لا يستطيع أن يمنع نفسه من الذهاب إليها ليملأ عينيه منها ويتنسم الهواء الذى يفوح بعطرها .

ذهب إليها وهى ترعى غنما لها فى حوافى الحقل ، فاستقبلته قائلة :

— مرحباً بك يا « حاج فؤاد » .

— كيف حالك وكيف حال غنمك ؟

فحدثته عن نعجة ولدت خروفين وأتت إليه بالوليدين وهما يتواثبان ويثغوان ، وقال لها عن أحدهما :

ـ أراه حملا ظريفاً ، ويا ليتك سميته باسمى .

ـ ليس قدر المقام يا « حاج فؤاد » .

فهى أيضاً تحس بالجدار القائم بينهما كما يحس هو به ، ثم تجسم الحاجز المعنوى بين الحبيبين المتفاوتين فى شخص حبيب آخر للفتاة كان فى الوقت نفسه صديقاً للفتى ، وهو شاب أعرابى اسمه « قوية » وكانت صداقة فؤاد لصاحبه الأعرابى أشبه بحبه للفتاة الأعرابية ، من حيث ما بين فؤاد وبين كل منهما من تفاوت ، وليس من الدقة أن نصف العلاقة بين الشابين بأنها علاقة بين تابع ومتبوع ، فإننا نرى فيها فؤاد تجتذبه فى الفتى البدوى صفات إنسانية كامنة تحت المظهر الخشن الذى اعتاد المترفون أن يزدروه .

الشاب الأعرابى يحب تعويضة وهو يرى صديقه الكريم النبيل « فؤاد » يهتم بها . . . رآه مرة فى ليلة من ليالى السمر يحدثها ويضاحكها فأطرق بعد مرحه ولاذ بالصمت ، ورآهما مرة أخرى يقبلان معاً من الحقل يسيران بين النخيل ، وكان هو آتياً من القرية ، فعاد أدراجه واندس بين البيوت فغاب فيها .

وذات يوم تطرق الحديث بين الشابين إلى ذكر تعويضة ، فقال قوية :

– ألست تحب أن تكون لك ؟

– من هى ؟

– تعويضة .

فغضب فؤاد ، وقال قوية :

– وهل كنت لأقتحمها عليك ؟

– ! ! ! !

– أليست تعجبك ؟

– وهبها تعجبنى .

– إذن فمن أكون أنا حتى أتعرض لها !

– اسمع أيها الأحمق ، أليس يعجبك منظر الزهرة !

– وهل هى كذلك عندك ؟

– هى كذلك ، وما أنظر إليها إلا كما أنظر إلى الزهر والحقول والسماء والفضاء .

وارتاح الفتى الأعرابى إلى ذلك ، وانطلق فى مرحه يغنى بلهجته البدوية :

يا نوارة الشط زوى الطل عاليها
وصبحتها مساقى الورد تسقيها
يا نجمة الليل يالله معاى نراعيها
وإن نمت فى الفجر تبقى عينى تحميها

ويقول المؤلف إن فؤاد غضب وقال لصاحبه : اسمع أيها الأحمق . . . إلخ ، وما أرى فى الموقف شيئاً يستحق هذا الغضب أو يدعو إلى الوصف بالحماقة ، فقد كان الفتى رقيقاً معه متسامحاً إلى درجة لا تتفق مع طبع أعرابى مثله . . . ولك أن تعجب أكثر من هذا لاقتناع الأعرابى بفلسفة الزهرة ومن قبوله لفؤاد « معجباً » بفتاته على هذا النحو الذى لا يقبله كثير من غير الأعراب !

وتزوج قوية تعويضة ، وكان فؤاد بالقاهرة وهم أن يعود إلى العزبة فى العيد ، ولكن خطاباً أتى إليه من قوية يدعوه إلى شهود ليلة عقد زواجه ، فمزق الخطاب وعدل عن السفر . . . فماذا تظن الباعث له على ذلك ؟ لا بد أن تقول إنه تجنب شهود هذا الزواج لما يثيره فى نفسه من لواعج الهوى القديم ، ولكن المؤلف يقول إنه بعد أن مزق الخطاب قضى ليله مسهداً كئيباً يلوم نفسه كيف نزلت به حتى يتجرأ مثل هذا الفتى على دعوته فى هذه البساطة إلى عرسه !

وهذا موطن من المواطن التى ينجذب فيها فريد أبو حديد إلى الجناح الأرستقراطى أو بتعبير أدق إلى جناح الطبقة المتوسطة البرجوازية .

لقد كان كغيره من شيوخ الأدب ، بعد أن نالوا ما نالوا من

مكانة أو منصب أو مال ، يجاذبه ذلك الشعور الذى يبدو أحياناً فى كتابتهم مهما جاهدوه .

ويمثل الحب الثانى لفريد أبو حديد تلك المجاهدة . . . وجاء هذا الحب على أثر حب تعويضة ، فإنه ذهب إلى شاطئ الإسكندرية فى الصيف التالى « عسى أن ينسى عنده ما مر به من سخافات ! »

وكلمة « سخافات » هنا لا تعجبنى لأن المقصود بها أحداث الحب الأول وذكرياته . وفى الإسكندرية التقى بصديقه سعيد الذى كان طالباً معه فى المدرسة الثانوية ، ثم التقى بعلية أخت سعيد وقضى معهما أياماً يصفها بأنها « ملأى »،ولم تكن كذلك لأنه استعاد مودته الأولى لصاحبه فقط ، بل ملأتها المودة الجديدة التى توثقت بينه وبين علية الحسناء المنعمة المرحة الطروب . ومع هذا لم يذهب من نفسه طيف تعويضة ، وقد هزته ذكراها عند ما دخل مرسم سعيد ، وكان هذا رساماً ، فرأى صورة جميلة من الشوك تطل بين أشواكها أزهار باسمة ناضرة لها ألوان لا يشبهها فى روعتها شىء مما تقع عليه العين فى البساتين الضاحكة . وقف فؤاد أمام الصورة مشدوها ، فقال سعيد :

ــ أزهار الشوك يا فؤاد .

ـ أزهار الشوك !

ـ هل أعجبتك ؟

ـ إنها قطعة من الإنسانية . ألا تسميها البدوية الحسناء !

ولم يكن فى باله غير تعويضة التى تشبه فى إشراقها داخل ثيابها وحياتها الخشنة ، الزهرة اليانعة بين الأشواك . كان إذا خلا إلى نفسه بعد لقائه لعلية ، تقفز إلى خياله صورة تعويضة ، فيقارنها بصورة علية . . . فيحار بينهما ، إذ يراهما طرفى نقيض : علية فتاة مزهوة تحس بنفسها وتعرف مقدار حسنها ، فيحملها ذلك على شىء من التكلف يقلل من بهجة حسنها ، كانت تشارك فى مؤسسات الخير وتعاون على أعمال البر ، ولكنها كانت تفعل ذلك وهى شاعرة بأنها قوية تمد يدها إلى الضعفاء ، كأنها ترضى كبرياءها بالعطف على الفقراء ، وكانت تحس كأنها تحلق عالية فلا يضيرها أن تمد يدها إلى من هم فى أدنى الأفق وهى تشعر بالزهو . أما تعويضة الأعرابية فهى لا تعرف شيئاً من ذلك ولا تحسه .

ويقطع فؤاد مع علية شوطاً كبيراً ، ولكن على طريقته . . . فى الاكتفاء بالحب من جانبه ، وقد كان يحدث علية فى كل شىء دون أن ينطق بكلمة أو يأتى بحركة تدلها على أن قلبه ينبض . . . وذلك على رغم إغرائها . . . أخذت ذراعه وسارت

به نحو عريش فى ركن الحديقة ، وأحس لمس يدها ساحراً يغمره بالسعادة ، ولكنه لم يزد على امتداح عنايتها بالحديقة وأصصها وأزهارها ، وقالت له مشيرة إلى « العريش » : لقد عرفت أن ذلك المجلس يعجبك . فسر بذلك فى نفسه لأنها لابد ذكرته وهى ترسم هذا العريش . . . وجلست على مقعد ونظرت إليه كأنها تدعوه إلى الجلوس ، وفاح فى الهواء عطر خفيف من أزهار العريش يمتزج بالعطر الذى يفوح منها . . . ثم لم يكن منه إلاّ أن جلس يمتدح المنظر ويصفه بأنه قطعة من الفن . يقول لنا إنه همّ أن يأخذ بيدها بين كفيه فيرفعها إلى شفتيه يقبلها ثم يتدفق لها بما فى نفسه فيكشف لها عن الحب الذى يجيش فى قلبه قويًّا صادقاً صافياً . ولكنه . . . همّ فقط !

والأستاذ فريد أبو حديد يغرق كثيراً فى وصف الطبيعة وجمال مناظرها دون أن يؤدى استغراقه فيها إلى نتيجة فى الموقف . . . وهى طريقة معروفة عند الأدباء الخياليين ، ولكن ذلك الوصف حين يقصد لذاته دون أن ينسجم مع الحركة البشرية يصبح شعراً عاجيًّا منعزلا وهو فى كتابة أديبنا الكبير يخاصم نزعته الشعبية الواقعية ويتنافر معها .

وأنا لا أعلم أية فائدة للحديقة وأزهارها ومناظرها وأريجها ، ولا للبدر يطل من بين أغصانها . . . إذا لم يبعث كل ذلك

فى النفس نشوة إيجابية فيدفع المتردد إلى الإقدام والمتلعثم إلى الإفصاح .

وكان من الطبيعى ، الذى عجب منه ، أن أخذها منه فتى وسيم يعنى باختيار كرافتته وتفصيل بدلته ، إذ تقدم هذا إلى خطبتها وتزوجها ، على حين أحجم صاحبنا متشبثاً بذلك الحاجز الخالد فى أدبه .

فعلية فتاة متكبرة متغطرسة ، وهى وإن كانت من طبقة فؤاد الاجتماعية إلا أنهما مختلفان فى الفكر والمزاج من حيث النزعة الشعبية التى تجاهد أديبنا ويجاهدها . . . إذ نراه يحب فيها ويضع ، ثم نراه يحس بمعرتها فينفر منها ، فإذا جاء إلى علية المنعمة لم يعجبه منها ترفعها ، فأقام بينه وبينها جداراً . ولعله تعلق بذلك الجدار ، لينسب إليه تردده وعدم إقدامه ، وهو يعلل هذا التردد بأنه تعود بساطة الريف فهو لا يميل إلى مفاتن المدينة وملاهيها ولا يرتاح إلى مجامعها الصاخبة . ولا إلى أنوارها التى تكاد تعشى العيون ، ولكن علية تحب كل هذا الذى ينكره ، وتجد فيه متعتها ، فلهذا لا يستطيع أن يتخذها زوجة ، ولكنه فى موضع آخر جعل يتمثل صورتها ويقول : أهذه الصورة الوديعة هى التى اختارت صدقى « زوجها » وآثرته عليه وغرها لألاء مظهره ؟ أهاتان العينان

الزرقاوان الصافيتان هما اللتان لم تستطيعا النفوذ إلى أعماقه لتبصرا ما هنالك من حب صاف .

الحق أن الأدباء والفنانين يخدعون أنفسهم بتخيل المرأة على غير حقيقتها كأنثى يصبيها الشاب الباسم المرح المتأنق الوسيم . المرأة كالفراشة تجذبها الأضواء ، فإذا أقبلت على الأديب الفنان فإن الذى يجذبها ضوؤه الظاهر . . . مكانته وشهرته ، وهى لا تقدر فيه أصالة فنية ولا صفات موضوعية ، ومن تشذ عن هذا فينفذ تقديرها للأديب إلى الأعماق ، فهى مثله . . . كل منهما حرمه التفكير وقوة النفوذ إلى جوهر الأشياء — نضارة الجسم ووسامة المظهر .

وقد نشأ عن تردد فؤاد فى مفاتحة علية بحبه إياها أن ظل الأمر بينهما فى الظاهر أمر صداقة ، ولا ندرى ماذا كانت تكن له ، وهى تقول له مرة : إننى أنظر إليك دائماً كما أنظر إلى أخى ! وهذه كارثة فى الغرام لا شك فيها . . . تنظر إليه كما تنظر إلى أخيها ؟ إذن فقد عاد المحب الولهان من جولة الهوى بالخيبة والفاجعة فى قلبه . . . وانتهى به الأمر إلى الصداقة وهى فى حياتها الزوجية ، إذ « بدأ يحس نوعاً جديداً من السعادة أفسح مما كان يخيل إليه ، أحس أن المودة الصافية التى جمعت بينه وبين علية تمتعه من السعادة بأضعاف ما كان

يستطيع أن يجده فى أية صلة أخرى ، حتى لقد سأل نفسه : أليس هذا هو الحب الأول ؟ أليس ذلك هو الحب الذى يتحدث عنه رسل الإنسانية فى غير تحرج » .

وهذه النهاية أو هذه الذروة التى رفع إليها الحب ، وهى الصداقة الصافية ، هى شعشعة للحب . . . الحب بين الرجل والمرأة ، وليست صداقة من نوع ما يكون بين أفراد الجنس الواحد . . . هى – كما يبدو لى – حب حوله الإخفاق إلى هذه المرتبة التى استراح فيها الشعور المكدود وأوهم نفسه بأن فيها من السعادة أضعاف ما فى أية صلة أخرى .

وكذلك فعل الأستاذ فريد أبو حديد فى قصة زنوبيا ملكة تدمر ، ويخيل إلى أن الخط الرئيسى لهذه القصة هو الصداقة أو الحب الذى كبت فاتخذ مظهر الصداقة بين الملكة وبين معلمها الفيلسوف « لونجين » ففى القصة حب بين هذه الملكة وبين زوجها « أذينة » ملك تدمر ، وفيها أحداث وحروب وأهوال ، ولكن الخيط النفسى الدقيق الذى ينتظمها هو تلك العلاقة التى تحس فيها بملامح لشخصية فريد أبو حديد تظهر فى شخص « لونجين » ذلك الفيلسوف الذى يشتمل فى قرارة نفسه على حب مكين لزنوبيا ، ولكن « الحاجز الطبقى » – كما هو دائماً – يقف عقبة فى سبيل هذا الحب .

كيف يجرؤ معلم يقرأ للملكة كتب الفلسفة على أن يفصح عن حبه إياها ؟ إذن فليغش بجوارها « كتاباً متنقلا » تقرأ فيه عند ما تريد فلسفة أفلاطون وإلياذة هوميروس . ولكن الرجل الذى يشتمل عليه هذا الكتاب له قلب ينبض ، ونفس تحس ، وأمل يجيش . . . كان يكبت مشاعره ، ولكن الملكة تسأله يوماً :

– طالما حدثتنى عن أفكار الفلاسفة فحدثنى عن نفسك، وقل لى كيف ترى المرأة ، ألم تعرف المرأة يا لونجين ؟

– عرفتها ، عرفتها يا مولاتى كما عرفت الرجل .

– قل لى إذن كيف أنت منها إذا أحببتها .

– أهب نفسى لها .

– حدثنى عن نفسك ، قل كيف تحس ، وكيف تفكر ، وكيف تعمل .

قل لى إن كنت قد أحببت امرأة ؟

فينفجر الفيلسوف قائلا بصوت متهدج :

– عرفت امرأة واحدة ، ء فتها لأنى أحببتها ، وددت لو أن الحياة كانت شيئاً يعطى فأهديها إليها ، فهكذا الرجل أو هكذا أنا . لم يخلق الرجل إلا ليكون عبداً وخلقت المرأة لتكون مالكة . الا جل يبيع نفسه من أجل الحب ، يبذل للمرأة

كل شيء عنده ، يهب قوته وقدرته وحيلته ، ويسخر مهارته وقسوته وشجاعته ، ويهدى علمه وفنه وحكمته . يبذل لها كل ذلك ويقنع منها بأن يحبها ولو لم تحس هى بذلك الحب .

ويقوم الجدار بينهما . . . فيتحول النبض الحى إلى أفكار مجردة عن الحب والمرأة والرجل . وتلقى المرأة التحية إلى معلمها وتذهب إلى مخدعها . ويقف هو هنيهة ويدور رأسه ، فيرتمى على كرسيه يناجى نفسه :

— أيها الكتاب الأبله . . . أيها الحكيم الشقى !

هنا ، كما هناك ، « الحاجز الطبقى » ، والمحب الذى يقنع بأن يحب الحبيبة التى لا تحس بحبه ، والصداقة التى يتسامى إليها الحب .

ظل الجدار قائماً بينهما حتى النهاية ، فقد كانت الملكة تحدث الفيلسوف وهو يحدثها عن الحب والمرأة والرجل ، ثم تنهى الحديث بقولها :

— هل عندك كتاب لأفلاطون تقرأه ؟

ظل الرجل يقرأ قانعاً بصداقته الرفيعة أو حبه المكبوت . ظل كتاباً تقلّب صفحاته حتى طويت آخر صفحة فيه بأن قتل فى سبيل المرأة التى اعتصمت دونه بجدارها الملكى .

وفى قصة « أبو الفوارس عنترة بن شداد » نرى الكفاح

الطبقى فى الحب فعنترة الذى رفض أبوه أن يعترف ببنوته ، لأنه أتى به من جارية ، أحس بهذا الوضع المهين ، وعظم إحساسه به عند ما اشتد حبه لعبلة ، فدفعه هذا الحب إلى الكفاح فى نيل الحرية حتى انتزعها بسيفه وحمل أباه على الاعتراف به . كان يتعذب بحبه وهو قريب من حبيبته كل القرب بعيد عنها فى الوقت نفسه كل البعد . . . قريب منها كعبد من العبيد يقوم بخدمتها ، بعيد عن أن يكون إنساناً فى إبداء شعوره الذى يضطرم فى نفسه نحو ابنة السادة . ونرى هنا « فريد أبو حديد » يتقمص عنترة ، إذ يقضى حقبة طويلة يحب عبلة بينه وبين نفسه وينطوى على مشاعره . . . وهو فى هذه المرة مرغم حقيقة لا يستطيع أن يجاوز حده ، ولكن البطل عنترة يكره المؤلف على أن يتقدم به جريئاً عند ما يستكمل حريته ليخطب عبلة ، ثم يتمكن المؤلف فى موقف آخر من أن يتأخر بعنترة ويلزمه الانطواء . وذلك بعد ما عاد عنترة من العراق يحمل الأموال والهدايا التى أعدها لعبلة مهراً وإتحافاً . إذ جعل يفرق الأموال فى العرب ويبعث بالهدايا إلى عبلة لتكون حلية لها يوم زفافها إلى الذى خطبها فى غيبته . . . ويضرب فى الصحراء يصيد طعامه . ولكن القوم غلبوا انطواء المؤلف فى الحب وتقدموا بعبلة يزفونها إلى عنترة .

أما « آلام جحا » فهى ظل لآلام المؤلف ، الذى صاغ قصة جحا صياغة بارعة ذات موضوع إنسانى فلسفى ظريف . والذى يسترعى الانتباه فى قصص فريد أبو حديد أن القارئ يجده أو يجد ظلالا له فيها ، وهذا يدل من غير شك على الأصالة والصدق .

جحا يعبر عن الآلام والمتاعب التى يعانيها من زوجة سيئة تخالفه فى كل شىء وتجعل حياته جحيما لا يطاق . ويصبر على أذاها حتى يتاح له أن يتخلص منها . ونراه آخر الأمر يحب ويتزوج من يحبها ، ويوفق فى حبه وزواجه ، لأنه بنى حبه فى هذه المرة على إدراك سليم يوجه عاطفته توجيها سليما ، ولم يكن كذلك فى الزواج الأول . ويقر على شاطئ السعادة بعد أن عانى ما عانى من اللجة الحمقاء .

وفى حب جحا كذلك « حاجز طبقى » وفيه انطواء واكتفاء بالمشاعر من جانب واحد ، فقد رأى ابنة السلطان فى هودج فلمح فيها ملامح بنت كان يحبها وهو صغير ، فحول خياله تلك البنت إلى علية ابنة السلطان . وهو يعلم أن لا سبيل له إلى بنت السلطان ، ولا بأس بذلك ، أليس هو يحبها ؟ هذا يكفى . . . فهو يكافح الجدار القائم بينه وبينها بشىء يسير جدًّا . . . بالخيال ! وهو لا يعبأ بكلام الناس وسخريتهم من

أن يتطاول إلى مقام لا ينبغى له ، فهو فقير حقًا وضعيف الجاه ، ولكن ما الذى يمنعه أن يتطلع إلى صورتها ومن يستطيع أن يحجب عنه العوالم التى يكشفها بتأمل حبها ؟

وليس ثمة شىء يستطيع أن يمنع خيال جحا . . . هذه « نجوى » الصالحة الكريمة أخت صديقه ، التى رست عندها سفينة حبه . . . إنها تشبه علية التى ظل حيناً يتأمل حبها على رغم الفوارق ، فلتكن هى نجوى وليس يهم الاسم أو غيره ، المهم هو الصورة التى تفتح فى قلبه كل شىء ، وهل كانت علية إلا تلك البنت التى أحبها صغيراً ، فلم لا تكون نجوى كذلك ؟

وكان يوماً من أيام الربيع ، تفنن الأستاذ أبو حديد فى وصف أزهاره وأطياره وأثر الشذا والتغريد فى إنعاش النفس ، ذلك اليوم هو الذى رأى فيه نجوى وأحس بحبها . وهذا من القليل ، بل النادر ، الذى يصنع به مؤلفنا الكبير جوًّا يلائم فيه بين جمال الطبيعة وما يجرى من أحداث . فهو كلف بهذا الوصف حتى يخيل إلىّ أحياناً كأنه يقول للقارئ :

تعال نتمتع بسحر الحقول والبساتين ، ولندع هؤلاء الناس الذين نتحدث عنهم يستريحون قليلا ، بل كثيراً .

وبعد كتابة ما تقدم ظهرت القصة الجديدة « أنا

الشعب » للأستاذ فريد أبو حديد ، وفيها حب ، له الخصائص التى عرفناها : انطواء مكبوت وكفاح للتغلب على الحاجز الطبقى ، وأبادر أولا فأقول إن الميل إلى الجانب الشعبى فى هذه القصة يكاد يصبح اندماجاً ، فقد تمحضت النزعة الشعبية للمؤلف وخلصت من شوائب « البرجوازية » فى العهد الجديد ، عهد الثورة .

كافح بطل القصة فى حياته العملية التى اتصلت بالحياة العامة ، وفى حبه الذى بدا فيه عاملا يذهب بالخضر والفاكهة إلى بيت صاحب العمل ، فيرى هناك ابنته ، فيلعب معها فى الحديقة وبعد أن كان يستنكف من الذهاب إلى المنزل بتلك الأشياء صار يشعر بالارتياح من أجل الفتاة كلما كلفه الرجل بخدمة يذهب فيها إلى البيت . وتطور الارتياح إلى حب ، ولابس الحب ما عهدناه فى حب المؤلف ، الذى يحبه أو الذى يكتبه . فقد ظل الفتى إلى النهاية يكبت مشاعره ويتجنب أن يكشف للفتاة هواه .

كان فى فترة قطعت علاقته فيها بأبيها — يتعمد المرور ببيتها لعله يلمحها من بعيد فإذا لمحها عاد إلى بيته كأنه يطير على الهواء ، ويتصبر بالسعادة التى فاز بها عدة أيام .

ومات أبوها ، وراح هو يرعى مصالحها ، ويسعى فى

دفع ما يراد بها وبأسرتها من أذى ، وهو ساكت عن كل ما ينم عن عاطفته ، حتى كادت الفتاة تقول له إنها تعتبره كأخيها . . . ولكن الله سلم .

محمد سعيد العريان

قصة حب « محمد سعيد العريان » هى قصة حياته فى أول شبابه ، وربما قبله ، وهى كذلك قصة أدبه . صهره الحب ، ودفعته دوافعه فكتب عن أشواقه وأشجانه ، وجدّ فى طريق الأدب مستجمعاً قواه ليغرق فى لجة الجهد الأدبى ما يعانيه من الوجد وما يقوم من العقبات فى سبيل الوصول إلى أمنيته فى الحب .

ولم يكد يتغلب على العقبات الأولى وينعم بحبه نحو أربع سنين غصبها من يد القدر الشحيحة ، حتى فجعته فى شريكة حبه الفاجعة التى لا رادّ لها ، ولكنه ظل يكتب ويقرأ ، يصور أشجانه ، ويُكب على القراءة والكتابة ليغرق آلامه فى اللجة...

وتغلب على مأساته فى هذه المرة باقتناعه ويقينه أنه يعيش على ميعاد لابد يأتى ، وكل ما يلقاه قبل الميعاد لا يستحق الاكتراث .

نشأ سعيد العريان فى بلده مدينة طنطا ، وهذا هو هناك شاب يتطلع إلى دنيا الأدب ، وقد اشتمل قلبه على حب

فتاته التى نشأ قريباً منها صغيرين ، فيتصل بالأديب الكبير « مصطفى صادق الرافعى » الذى كان يقيم فى « طنطا » ويشغل فيها وظيفة كاتب فى المحكمة . . .

وتوثقت الصلة بين الأديب الشاب المتطلع وبين الأديب الكبير الذائع الصيت الذى كان يذهب إليه قاضى المحكمة فى مكتبه بين الموظفين ليسلم عليه ويمدح الفرصة السعيدة التى تجمعه به . . . وكان للرافعى — على محافظته وتدينه — جولات فى الحب . وكان العريان ، ولا يزال ، محافظاً ومتديناً مثله ، ولكنه فى الحب لم يكن له غير الجولة التى استغرقت حياته .

ولعل أعجب جولات الرافعى الغرامية ما يحدثنا به الأستاذ سعيد فى كتابه « حياة الرافعى » فيقول إنهم — سعيد وشابين آخرين — كانوا يسمرون مع أستاذهم ذات ليلة كعادتهم فقال له أحدهم :

إن فى متنزه البلدية فرقة تمثيلية هبطت المدينة منذ أيام وفيها مغنية راقصة جديرة بأن توحى إليك . . .

فمط الرافعى شفتيه ولم يعجبه الاقتراح ، فعاد الشاب يقول :

ولكنها راقصة ليست كالراقصات . . . إنها صوامة قوامة . . . تصوم الشهر وستة أيام بعده ، وتقوم الليل إلا أقله وتصلى الخمس في مواعيد الخمس ، وما أحسب رقصها وغناءها

إلا تسبيحاً وعبادة . . !

وهكذا عرف الشاب الطريق إلى قلب الرجل المتدين الذى يميل إلى الجمال ويسعى إلى سحره فى الأنثى ليستوحيه فيما يكتب ، وصدق الرافعى كلام الشاب . . . وذهبوا إلى متنزه البلدية ، واشرأب الرافعى ينظر من وراء الصفوف إلى الراقصة المقدسة . . . إنه يرى صدراً ناهداً وقواماً أهيف وعينين حالمتين وشفة باسمة . . . إلى آخر ما يرى من أدوات السحر وأسباب الفتنة . . . ولكنه على ذلك كله لا يريد أن يراها كما يراها باقى الرجال ، إنهم يرونها أنثى فاتنة ، وهو يراها عابدة تسبح وتصلى ! إنه يراها « فى اللهب ولا تحترق » وكان هذا عنوان مقالة بمجلة الرسالة .

ثم دعا الرافعى صديقه الشاب صاحب الاقتراح ، ليستزيده من أخبار الياقوتة الكريمة « الراقصة العابدة » ويسأله الوسيلة إلى لقائها ، لعل هذا اللقاء يفتق ذهنه عن موضوع جديد يكتبه لقراء الرسالة ، وراح الشاب يدبر الوسيلة ، ولكنه غدا إلى الرافعى بنبأ فرارها مع موسيقار الفرقة وذهاب زوجها فى أثرها . . . وعاد الرافعى بعد أن عرف فرحة الشاب ، إلى مقاله فى الرسالة يقرأه وهو يضحك ويقول :

ـ أهذا ممكن ؟ أتكون فى اللهب ولا تحترق !

فيرد الشاب :

– لقد احترقت !

كان الرافعى يرى « أن النابغة فى الأدب لا يتم تمامه إلا إذا أحب وعشق » و « أن المرأة للشاعر كحواء لآدم ، هى وحدها تعطيه بحبها جديداً لم يكن فيه ، وكلّ شرها أنها تتخطى به السموات نازلا . . . »

ولذلك كان يحب ، يسعى إلى الحب ويبحث عنه ، لأن فى نفسه شعراً يريد أن ينظمه أو رسالة فى الحب يريد أن يكتبها ، فإذا بلغ مأربه ، لا ممن يحب ، بل من القصيدة أو المقالة . . . فقد انتهى الأمر . . . أخذ من حواء جديداً لم يكن فيه ، ولكنه تعلم من درس أبيه آدم ألا يدع حواء تتخطى به السموات نازلا . . .

وكذلك كان شأنه مع « مى » التى كانت جولته معها أهم جولاته فى الحب . ولم تكن « مى » حواء كاملة . . . على نحو ما أشرت إليه فى غرام العقاد ، وقد كتبت للرافعى : « إن أمى ولدت نفسى ونفسى هى ولدتنى ، فلا ترج أن تصيب فىّ طباع أنثى ، وإلا ضل ضلالك أيها الحبيب » .

وللحكم على هذا النوع من الحب وما يوحيه من أدب مجال آخر . وإنما أريد أن ألقى ضوءاً على حب الرافعى

باعتباره أستاذاً وصديقاً لأديبنا الأستاذ العريان ، ولا شك أن تلك الظروف تعتبر البيئة الأدبية الأولى لصاحبنا . ويهمنا منها ما يتعلق بالحب والغرام .

سعيد العريان متدين محافظ كالرافعى ، وهو مثله أيضاً ومثل أى أديب فنان ، رقيق الطبع خفاق القلب ، يهفو فؤاده إلى الحسن وخاصة حين تنطق معانيه فى المرأة ، ومعانى الحسن وأشكاله ليست شيئاً متفقاً عليه عند الجميع ، فلكل مزاجه ومذاقه ، وقد رأينا الرافعى يتصورها فى الراقصة تسبيحاً وعبادة ، وما أبعد هذا التصوير عن الكثير من الناس . وكذلك يختلف كل عن الآخر فى نوع حبه ، وقديماً اختلف مجنون ليلى عن عمر بن أبى ربيعة ، كما اختلف روميو عن دون جوان .

كان العريان كالرافعى فيما ذكرت ، ولكنه اختلف عنه فى الحب ، كان الأستاذ الشيخ مثل « دون جوان » فى التنقل وطلب الحبائب ، وإن كانت أهدافه غير أهداف « دون جوان » ولكن التلميذ الفتى كان كروميو وقيس . . . أحب واحدة ، ولاقى فى سبيل حبها أهوالا وصعاباً وثبت على حبه ، وأذكى ناره بما كتب وما نظم ، ولم يكن هذا الذى كتب ونظم هو الهدف من الحب كما كان عند الرافعى ، بل كان حطباً له كما

كانت نفسه ، بل كان هو ونفسه شيئاً واحداً . . .

كان العريان مشغول القلب منذ سنوات عند ما صحب صديقه الكبير فى زيارة الآنسة « م » معلمة الموسيقى فى إحدى مدارس البنات بطنطا ، وكانت تلحن للرافعى نشيد « بنت النيل » و « اسلمى يا مصر » . وعلى أن الرافعى أصم لا يسمع قصف المدافع فإنه كان يجلس أمام الآنسة الموسيقية وهى تعزف على البيانو ، ينقر على الأرض بعصاه ورجليه ، ويهز رأسه ، ويرنح جسمه ، كأنه يسمعها بعينيه ، أو قل إنه كان يخيل إلى نفسه أنه يسمع العزف حقيقة كما تخيل الراقصة فى محراب العبادة .

وأراد الرافعى أن يصنع جوًّا عاطفيًّا بين صديقه الشاب وبين الفتاة الموسيقية ، ليتأمل ويتفكه ويستوحى . . . فطلب من الفتى أن يعطيه ورقة بها زجل كتبه فى حبه ، وكان قد أطلعه عليه قبيل الزيارة ، وأخذ الرافعى الزجل ثم أعطاه للفتاة وهو يهمس فى أذنها ، فأخذته وقرأته ، وكان قطعتين مطلع الأولى :

يا ورد شوقى وشوكك عاملين مؤامرة على

الشوق يجرح فى قلبى والشوك يجرح إيدى

ومطلع الثانية :

بين المنى والفراق ضيع شبابه وشبابى

وابتسمت الفتاة ، وظهرت على وجهها حمرة الخجل والنشوة . . . فقد قال لها الرافعى عند ما همس فى أذنها :

إنه يقصدك بهذا لأنه أحبك !

وعند ما انتهت الآنسة « م » من العزف قامت وأحضرت مسكرات فاخرة وقدمت . . .

وقال الشيخ للفتى عند انصرافهما : إنها تحبك !

وابتسم الفتى فى عدم ارتياح . . . ما له ولهذه الفتاة التى لم يكن يطلب عندها أكثر من أن تلحن له ما قاله من الزجل فى حبيبته التى تقف فى طريقه إليها أشواك التقاليد ، ويحرق شوقه إليها فؤاده ، ويوشك أن يضيع شبابه وشبابها بين المنى والفراق .

وكان سعيد يلاحظ اهتمام الآنسة « م » به فى الزيارات « الفنية » التالية ، ويضيق بهذا الاهتمام ، والرافعى يواصل إشعال النار فى الفتاة ، ويحاول إشعالها فى الفتى ، ويتأمل ويتفكه ، عساه يستوحى مقالا للرسالة . . .

وأذاع الرافعى بين المعارف والأصدقاء أولا ، ثم شاعت الإشاعة فى البلد ، أن سعيد العريان وقع فى غرام « م » . . .

وانزعج سعيد ، وزاد انزعاجه عند ما عرف أن الخبر وصل إلى فتاة أحلامه . . . فامتنع عن الزيارات الفنية وتجهم فى وجه « م » الذى كان يبتسم له إذا قابلته فى الطريق . . .

أحب سعيد فتاته وهو فى نحو العشرين من عمره ، وكانت من أسرة محافظة فى « طنطا » وكانت قرابته لها سبباً لتردده على المنزل ولقائه إياها ، ودفعته هذه العاطفة إلى التودد إلى والدها ، فكانت بينهما شبه صداقة مع القرابة ، فكان الوالد يقربه إليه ويرحب به ، وكانت « مراسيم » الحب تسير وفقاً لتقاليد المحافظين . . . لا يقول لها : أحبك . ولا تقول له : وأنا أحبك . وإنما كان يحدثها عن أى شيء عادى ، فيحس كل منهما أن صاحبه لا يحدثه عن هذا الشيء وإنما يحدثه عن حبه . . . وكان الفتى إذا ذهب إلى المنزل وجلس مع الوالد ولم يشعر بوجود فتاته ، ضمّن السؤال عنها كلاماً عرضيّاً ، فيجيب الوالد إجابة مشابهة ، ويحس الفتى كأنه يخطبها من أبيها ، ويحس الأب كأنه يقول له : وقد قبلت ! .

ثم بدا للفتى أن يتقدم خطوة رأى أنها ستتيح له حقّاً ثابتاً وفرصاً أكثر فى اللقاء . إنه لا يزال طالباً فى دار العلوم ، ولكن ماذا يمنع من أن يتقدم لخطبة الفتاة وقد قارب التخرج ؟ وخطبها ، ورحب به الوالد الكريم القريب الصديق . ولكن . . .

ليته ما خطبها . . . ! فقد وقعت الكارثة وانعكس الأمر . . .
وحكمت التقاليد بأن تحجب الفتاة عن خاطبها ويمنع من
رؤيتها ، فإذا أتى للزيارة جلس مع الوالد فقط وأقفل بينهما
وبين الداخل « باب الحريم » وإذ ذاك بدأت فترة الوجد الذى
ظلت ناره تكويه نحو عشر سنوات ، فإنه بعد ما أتم دراسته
وأصبح مدرساً بإحدى المدارس فى طنطا بادر بمحاولة القضاء
على « التقاليد » فطلب كتب الكتاب ، ولكن التقاليد كان
لها عمر ممدود ، إذ كان للفتاة أخت أكبر منها لم تتزوج ،
ولا ينبغى — فى عرف التقاليد — أن تتزوج الصغرى قبل
الكبرى .

ضاق الفتى بحجب الفتاة عنه ، واشتد سخطه على الوالد
الذى خاب فيه أمله ، وأصبح — وهو المحافظ — ثائراً على
التقاليد ، وصب جام ثورته فى قصة نشرت بمجلة الرسالة فى
٤ ديسمبر سنة ١٩٣٣ تحت عنوان « تقاليد » وهى من
بواكير أدبه ، والمتأمل فيها لا يراها قصة بالمعنى الفنى وإن
كانت قد نشرت بالمجلة فى باب « قصص » إنما كانت حملة
على التقاليد وعلى الوالد الذى تمسك بها ، وقد وضع له اسماً
غير اسمه ، كما غير اسمه واسم الفتاة . والعجيب فى هذا
الموضوع أنك ترى سعيد العريان المتشدد فى المحافظة وصيانة

المرأة من الرجل الغريب ، يحمل علم الثورة على « التقاليد » وعلى من يتمسكون بها . . . وقد حمل حملة شعواء جانبت الفن القصصى ، ولكنه كان على مقتضيات هذا الفن حينما اصطنع السخرية والتحليل المناقشة الواقعية المنطقية .

ولست أدرى هل بقى الأستاذ الكبير إلى الآن على رأيه فى الثورة على التقاليد ، وإن كنت أعلم أنه لا يزال محافظاً فى حياته العائلية ، ولا أظنه عند ما تخطب كريمته إلا متمسكاً بالتقاليد التى ثار عليها فى شبابه . . . وما أراه فى ذلك مناقضاً نفسه ، وإنما أراه أنانيًّا طالب لنفسه ما يحرمه على غيره ، ومتى خلص الإنسان من الأنانية . . . ؟ على أن لك أن تقول : إنه عند ما طالب بحقه فى الاختلاط بها كان يثق بنفسه ويعلم أنه مأمون . . . ولكنه الآن لا يثق بأن الشاب الجديد مأمون مثله . ولى أن أقول : وكذلك كان الوالد الأول ، ومن له بالثقة !

ولهذه المحنة آثار فى مواضع من أدب سعيد العريان ، منها ما كتبه فى قصة « رجل وامرأة » فى مجموعته القصصية « من حولنا » — قال عن زوجين لم يتفقا فى حياتهما الزوجية : « ولو أن الحجاب بينهما فيما بين الخطبة والزفاف لم يكن فى حراسة التقاليد لتفاهم قلباهما على الود الكريم ووضعا الأساس

لحياة الغد على غير جرف هار من الوهم والخيال » .

وقد جاءت هذه الفقرة فى القصة فيضاً من نفس الكاتب المملوءة بالسخط على التقاليد ، دون أن يوجه باله إلى أنه كتب فى أول القصة عينها أن البطلين اختلطا قبل الزواج إلى حد أنهما « استبقا الأوان فمنحته من ودها على غفلة من الأهل أشياء فى إباء الراغب ورغبة المتأبى . . . »

ولكى تعلم مقدار المفارقة فى حملة الأستاذ العريان على التقاليد مع محافظته أسوق وصفاً له كتبه عنه الرافعى فى الجزء الأول من « وحى القلم » فى مقال « س. أ. ع » وكان قد كتبه عن الشبان الثلاثة الذين يصاحبونه ويسمرون معه ، و « س » هو سعيد ، قال الرافعى :

« فأما « س » فرجل كشيخ المسجد يكاد يرى حصير المسجد حيث وطئت قدماه من الأرض . . . ذو دين وتقوى ما يزال بهما ينقبض وينكمش ويتزايل حتى يرجع طفلا فى الثلاثين من عمره . . . وهو حائر بائر لا يتجه لشىء من أمر المرأة ، وقد فقد منها ما يحل وما يحرم » .

واليقين أن الرافعى كتب ذلك المقال وصاحبنا غارق فى وجده وهواه ، فلم يكن كما وصفه الرافعى بائراً لا يتجه إلى المرأة . . . إلخ ، ويظهر أنه كان يخفى أمر حبه على صديقه

الشيخ ويتظاهر أمامه بأنه « خام » فصدق الرافعى ، كما صدق أن الراقصة تقضى الليل فى العبادة والصلاة والتسبيح .

ونستطيع أن نلمح فى نفس مقال الرافعى عن سعيد خيال الحبيبة التى كاد هواها يطير بعقله . . . يقول « س » :

« وأى عقل تراه فى رجل عزب يقع فى خياله أنه متزوج ، وأنه يأوى إلى " فلانة " وأنها قائمة على إصلاح شأنه ونظام بيته وأنه من أجلها كان عزوفاً عن الفحشاء ، بعيداً عن المنكر وفاعلها وحفظاً لعهد الله فيها ، وقد دلهته بفنونها التى يبتدعها فكره ، وهى ساعة تؤاكله على الخوان وساعة تضاحكه ، ومرة تعاتبه ، وتارة تجافيه ، وفى كل ذلك هو ناعم بها ، يحدثها عن نفسه ، ويسمر معها ، يحدثها عن نفسه ويتصنع لها وتتصنع له ، ويعاتبها أحياناً فى رقة ، وأحياناً فى جفاء وغلظة ، وقد ضربها ذات مرة . . . »

ولعل خياله جمح إلى ضربها تشفياً من أبيها وانتقاماً من « التقاليد » ولا بأس فهو مجرد خيال . . .

وأوحت نار البعد إلى صاحبنا فى تلك الفترة من حياته عدة مقالات نشرت فى السنوات الأولى من حياة مجلة الرسالة ، عدا ما نظمه من الشعر الذى لم ينشر ، منها قصة « تقاليد » التى تقدم ذكرها .

وكان يلقاها فى مكان من منزلها ، وبعد أن حالت بينهما التقاليد مر يوماً بالدار فوجد جزءاً منها قد هدم وأنشئت مكانه قهوة ، ورأى كرسيًّا هناك وترابيزة فى نفس الركن الذى كانا يجلسان فيه ، فحدثته نفسه أن يجلس ويطلب شيشة يصعد بها أنفاسه الحرى . . . ولكنه تحرج من هذه الجلسة وخشى أن تظن به الظنون . ثم كان مقال « دار وحبيب » الذى نشر بالرسالة فى أبريل سنة ١٩٣٥ وفيه يقول : « فأين يومك من أمسك يا دار ؟ أما يومك — وا أسفاه — فهذا الذى أرى : كومة من أحجار إلا جداراً يريد أن ينقض ! وأما أمس . . . هل تذكرين يا دار . . . ؟ »

ثم وضعت « التقاليد » أوزارها ، وأعلنت السلام ، وتم عقد القران سنة ١٩٣٦ ، وقضى الحبيبان سنتين فى سعادة اللقاء والأمل فى اليوم القريب : يم الزفاف ، وتحقق الحلم بعد السنتين وتم الزواج ، وها نحن نقرأ بعد سنة منه مقالا فى الرسالة عنوانه « دعينى أنام » وفيه يقص قصة غرامه منذ كانا صغيرين يلتقيان ، يتحدثان حيناً ، ويطرقان حيناً آخر ليتبادلا الأفكار صامتين « فما كانت بى حاجة لأحدثك عما فى نفسى ، ولا كانت بك حاجة ، وتفاهمنا على صمت ، ونظرتُ فى عينيك ونظرت ، فتضرمت وجنتاك من حياء ، وأحسست

يديك تختلج بين يدى . . . »

« ولما ضرب الحجاب بيننا وقامت دونه التقاليد ، تلفت القلب ينظر ، ولزمت الوحدة أياماً أعرض ذكريات الماضى ولهفة الحاضر وأمل المستقبل » .

« وتلاقينا مرة على ميعاد . . . هل تذكرين يا عزيزتى ؟ وجلست أقرأ لك فصلا بليغاً من كتاب كان معى ، فتندت عيناك بالدمع ، إننى ما أزال أذكر ذلك كأنه كان أمس ، على أن بينى وبينه عشر سنين . . . لقد قلت لى يومئذ كلمة ما زال صداها يرن فى أذنى :

« يا عزيزى ليس فى البشرية كلها من يقدر على خلق المعجزة التى تهز النفس من أعماقها غير الأديب البليغ ! »

« فجهدت جهدى لأخلق المعجزة التى تهز النفس من أعماقها ، ولم أذق طعم الكرى من يومئذ . »

« ليت شعرى ، هل جاءك — وبينى وبينك حجاب التقاليد — نبأ ما كنت أبذل من أعصابى ومن دمى فى سبيل الغاية ، حرصاً على أن أكون يوم اللقاء كما تريدين أن أكون ؟ »

« عشر سنين من عمر الشباب وأنا أخرج للناس كل يوم جديداً فى الأدب إلا يكن من إلهامك فإنه بسبيل إلى تحقيق أملك » .

وذلك يدلنا على الأثر العميق لهذا الحب فى خلق هذا الأديب الذى جعل الأدب خمرة ، يزيل بكأسها همومه ، لقد لازمته اللوعة طوال حياته منذ عرف الحب فى أول شبابه لم تفارقه غير أربع سنين ، وهو من هو فى دينه وعذرية هواه ، فلم يجد متنفساً فى غير الأدب وكئوسه المترعة .

وقضى الزوجان الحبيبان نحو أربع سنين أنجبا فيها ابنتين، ثم أسلمته الثالث ساعة ولادته ورحلت . . . كانت هذه الفاجعة فى يناير سنة ١٩٤٢ وكان قد بدأ يكتب فى مجلة الثقافة باب « الصحافة والأدب فى أسبوع » بتوقيع « قاف » وليس فى اسمه « قاف » ولكنه كان « يقفو » ويتتبع ما يكتب الأدباء والصحفيون . وانقطع عن الكتابة ثلاثة أشهر . ثم استأنفها فى مايو ، فكتب فيما كتب : « . . . فأنا من ذلك الماضى القريب كالمستيقظ فى أعقاب حلم ساحر ، كان حقيقة تسعده فصار وهماً يشقيه ، فليس نور النهار فى عينيه إلا ظلمة متدجية تضرب بين حياتين من عمره بسور ليس له باب ، من ورائه ركام من الذكريات وحطام من الأمانى وأشتات من الأباطيل والأوهام » .

وأصبح سعيد ، إلى جانب فاجعته فى حبيبة العمر ، أباً وأماً لأطفال ثلاثة ، وطالما قضى الليالى جاثياً بجانب فراش

الطفل الذى خلفته الراحلة قطعة من اللحم ، يدل صراخه على أنه كائن حى . . . يطوى كتابه ويسرع إليه يهدهده برفق « وفى القلب وجيب وفى العينين دموع ، وأغرانى سكون الليل بالنجوى ، فرحت أبث الطفل من وجدى وما به أن يسمع ولا أن يجيب ، واستجابت لى عيناى ! يا لك يا بنى من الدنيا ويا لى . . . ! »

هكذا كان يكتب فى الثقافة فتسيل على صفحاتها دموع القراء ، حتى اتهمه المرحوم أحمد أمين بأنه يعذب قراء المجلة !

ويتناول الصحف فيقرأ :

« رعاية الطفل » ، « حماية الأمومة » ، « إنقاذ الطفولة المشردة » ، « المولود والوالدة » ، « بيت الطفل » ، « مستشفيات الأطفال » ، « الإصلاح الاجتماعى » ، « الشئون الاجتماعية ! .

وكأن هذه العناوين قد اتفقت على أن تواجهه فى الليل ليصبح فى الصباح يبحث عن تلك المنشآت « أما واحدة فلا تقبل الرضَّع ، وأما الثانية فليس فيها مكان لطفل دون الرابعة ، والثالثة تؤوى من تشاء ولكن ليس فيها مراضع ، والرابعة فيها مكاتب وأبهاء للمحاضرات العامة تزينها صور الأعضاء . . . وقالت الخامسة وهى أعظم المنشآت الحكومية ، نحن على استعداد لقبول الطفل بالمجان على أن تتنازل عن حق أبوته ،

فإننا لا نؤوى إلا اللقطاء من مواليد صندوق القمامة . . . »

وعاد الأب من طوافه إلى أولاده فى المساء يعتذر إليهم بأنه كان فى سياحة بين طائفة من « عناوين » الصحف والمجلات !

ويمضى « قاف » لا يقصر قراءته على الصحف والمجلات ، وإنما يقرأ إلى جانبها صفحات أيامه وفصول حياته التى هى فصول حبه الذى أصبح دامياً . . . فراح يبكى ويكتب ، والقراء يقرأون ويبكون . . . ولا أريد اليوم أن أبكى قراء هذا الكتاب بتتبع ما كتبه عن شعوره فى أول مرة يأتى فيها المغرب فى رمضان ولا يجدها إلى جانبه على المائدة ، وما كتبه فى أول عيد وصور فيه أحزانه وحرمان أولاده أعز ما يكون للأطفال . . . إلى آخر ما كتب بدموعه وأسال به الدموع .

فلقد كان ذلك ، وهو يكون كتاباً فى هذا الموضوع لم يطبعه بعد ، أول عمل أدبى من نوعه فى الأدب العربى قديمه وحديثه .

وكان عبد الرحمن صدقى يشارك من يلومونه على الاسترسال فى هذه الكتابة وتعذيب القراء بها ، ثم لاقى نفس التجربة ، وأخرج ديوانه « من وحى المرأة » الذى صور بقصائده أحزانه لوفاة زوجته . وبعد سنين أهدى عزيز أباظه إلى سعيد أول

نسخة أخرجتها المطبعة من ديوانه « أنات حائرة » معبراً بذلك عن تجاوبه معه وتماثلهما فى الفاجعة ، إذ توفيت زوجته ورثاها بهذا الديوان .

ونستشف من كتابة سعيد فى هذا الموضوع أنه يرى أو يشعر أن حياته منذ أن أحب حلماً لم تقطعه إلا فترة العشرة القصيرة ، وهو مستمر بعدها حتى الممات « لقد ذهبت فلا سبيل إليها بعد ، وتبددت الحقيقة التى بت أحلم بها بضع عشرة سنة ، فليس فى يدى إلا ذلك الحلم ، ولكنه حلم مديد ، مديد إلى آخر الدهر ، لا يقظة منه إلا يقظة الآخرة . »

وهو كان يتمنى لو لم يكن اللقاء . . . ليتصل الحلم . . . ولكن لا ، فقد ظفر بابنته الكبرى . . . إنها صورة من أمها عوضه الله بها ، فهى حبيبته وابنته . . . وقد قامت بدور الأم نحو أخويها الصغيرين ، وهل كان يستشعر المصير المحتوم عند ما كتب مقال « ابنتى » بالرسالة حين ولادتها سنة ١٩٣٩ فقال لها فيها :

« هذه أمك يا صغيرتى ، لم تحمل ولم تلد قبل ، علميها الأمومة يا صغيرتى ، إنها لم تكن تعرف . . . »

« ورأيتك تلقمين ثديها مغمضة العينين تناول الخبير الفطن ، فأحسنت الرضاعة ، وما تحسن أمك أن تُرضع !

يا عجباً ! الطفل الصغير يعلم أمه الأمومة قبل أن تتعلم هى أن تكون أمًّا » .

بدأ سعيد العريان حياته الأدبية ، وهو فى معمعان الحب ، على صفحات « الرسالة » يثور على التقاليد ويحلم بالمنى ويأمل فى المستقبل ، ثم راح يسجل حقيقة الحلم ويغنى بسعادة نفسه ، ولما فجعه الموت فى هذه الحقيقة جعل يملأ صفحات « الثقافة » بالدموع ويعذب قراءها بالبكاء ، وها نحن اليوم نقص قصته ولم يعد هناك ما يدعو إلى البكاء والدموع ، فقد صار الأطفال فتاتين وفتى يبتسمون للحياة فى نضارة وأمل ، وصار الوالد الصابر قرير العين بهم وإن كان لا يزال يلبس الكرافتة السوداء . . . لأنه يعيش على ميعاد . . .

كامل الشناوى

قضى كامل الشناوى صدر شبابه على هواه . . . ترك الدراسة المدرسية وراح يقرأ ما يطيب له ، ويحفظ ما يطربه من الشعر والنثر ، ويجعل للهو من أوقاته جانباً ليس بالقليل . يلهو بريئاً أحياناً مع أصدقائه من أدباء وصحفيين وغيرهم ، وأحياناً يطيع الشيطان الذى يوحى إليه شعر الغزل ، ويظهر أنه كشيطان أبى نواس الذى أوحى إليه الخمريات ، فكل منهما يريد صاحبه على أن يعلن هواه ، فكما يقول أبو نواس لساقيه :

ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سراً إذا أمكن الجهر

يقول كامل الشناوى لصاحبته :

داری غرامك ما بدا لك داری أنا بالصبابة هاتك أسراری
هيهات لا أقوى على كتمان ما باحت به عيناك من أسرار

إلى أن يقول :

يا فتنة هدت الفؤاد إلى هوى حلو العذاب مطهر الأوزار
دلهـتنى ودعوتنى لتجـلد أظننتنى حجراً من الأحجار
وإذاسكت عن الحديث تجملا كيف السكوت لحسنك الثرثار
أفديك . . . فكل جوارحى نشوى وأحلام الصبا سمارى
أفديك صامتة يضج بحبها قلبى وتهمس حولها أفكارى

ولم تكن ذات الحسن الثرثار – والثرثار هنا وصف جديد جميل – إلا واحدة من فتيات « الدون جوان » كامل الشناوى ، ولا شك أن « فتنة » أخرى وثالثة وغيرها . . . هدته كل منها إلى هوى يستعذب فيه العذاب وتستحم به الأوزار .

ظل كامل الشناوى يتنقل فى بستان الهوى . . . لا يلبث على غصن إلا ريثما تاوح له زهرة . . . هذه ياسمينة . وتلك فلة . وهناك قرنفلة . وفى الأزهار أجنبيات كالبانسيه . . . حتى وقع فى فخ الوردة ، فأحب « روز » الراقصة اللبنانية الفاتنة .

رآها أول مرة فى حفلة خاصة فأحس بأشعة عينيها توقظ فيه مشاعر جديدة ، وتلقى من مفاتنها الحكم عليه بالنهاية . . . نهاية الشاب الذى كان يقطع طريق الصبا عدواً وهو يشعر أنه طويل ممدود ، لم يحن الوقت الذى يتوقف فيه عند مرحلة من المراحل .

إذن فهذه هى النهاية ، وهى البداية فى الوقت نفسه . . . نهاية القلب الذى كان يمتلئ ويصب . ثم يعاود الامتلاء والصب . . . وبداية القلب الذى امتلأ وهيهات أن يفرغ .

إنها ليست فتاة كالفتيات اللائى عرفهن وجرى معهن أشواطاً فى الهوى . كانت كل منهن محطة لا يلبث عندها إلا ريثما يستأنف سيره . أما الآن فقد بلغ محطة الوصول .

وخرج من الحفلة مترنحاً ، يجر قلبه بين ضلوعه — كما كتب فى مقال بمجلة « آخر ساعة » سنعرض له فيما بعد — وعاد إلى مسكنه لا يكاد يرى غير صورتها . . . هاتان العينان الحالمتان وهذه الشفة الداعية ، وهذا الصدر المثمر ، وهذا الخصر الناحل . . . « إنها أعجوبة هذا القرن ، بل أعجوبة القرون الماضية » . . . كما قال فى ذلك المقال .

كان قد سأل عنها رفاقه ، فأجابوه . . . وذهب إلى الكباريه الذى تعمل به ، ورآها . . . وأرسلت إليه من عينيها وميضاً يحاول أن يتقيه ، ولكن سحره يخدره . . . ثم يقول :

عيناك عيناك نامت فى جفونهما مفاتن أيقظت ليلى وأعصابى

مفاتن أتقيهـا وهى نائمـة فلا أحاول أذكيهـا بإعجابى

أصد عنك بعين غير صادقة وبين جنبى قلب غير كذاب

يا كبريائى لقد كلفتنى خطراً فيه المنايا مطلات بأنيــاب
تمرد الليل ... لا أغفو به أبداً حتى أرى الفجر مذبوحاً على بابى !

إنه إذن فى صراع بين كبريائه وهواه . . . الكبرياء تمثلها العين بنظرتها التى تحاول أن تصد ، والهوى يمثله القلب الذى يندفع فى خفقانه لا يعرف الكذب ولا التصنع .

ولك أن تسأل : فيم الكبرياء ؟ هل كان يعتز بمناعته ضد الحب الواحد الآسر ويرى نفسه طليقاً يتنقل بين الأغصان والأزهار كيف شاء ، فإذا قيدته زهرة وأمسكته اعتبر ذلك ضعفاً تأباه كبرياؤه ؟ . . .

أو أنه يلوم نفسه على أنه وقع فى غرام راقصة تنثر فتنتها على الجميع ؟ . . .

أو هو يدير فى نفسه اعتبار المجتمع الشرقى بأن الرجل المحترم لا ينبغى له أن يشغل قلبه بمثل هذه الراقصة . . . وأنه لا ينبغى له أن يفكر فى الزواج منها لذلك الاعتبار ؟

كيفما كان السبب فى تلك الكبرياء فإنها لا تتفق مع الحب الصادق الذى يكتسح كل اعتبار .

على أننى لا أميل إلى مذهب النقاد الذين كانوا يأخذون على الشاعر مثل تلك الكبرياء لأنها لا تليق برقة الغزل . . . لأن الشاعر حر فيما يشعر به وفيما يعبر به عن شعوره ، والذى

شعر به شاعرنا هو هذه الكبرياء ، فصور شعوره ذلك التصوير فصدق فى فنه الشعرى ، ولكنه كان مع هذا إنساناً أنانيًّا ، والحب لا يعرف الأنانية . . . لم يكن مثل « أرمان دوفال » ، الذى لم يعبأ بأى اعتبار فى حب « مرجريت جوتيه » غادة الكاميليا . ولم يسمع صوت أبيه وهو يذكره بكرامة الأسرة ولكن نعود فنقول : الشرق شرق والغرب غرب . !

قال كامل الشناوى تلك الأبيات قبل أن يتم التعارف بينه وبين روز ، ثم دعاها إلى مائدته فى الكباريه . وكان معه بعض أصدقائه ، وأخذوا فى الحديث والمناورات لفتح باب مبادلة الغرام . قال لها الأصدقاء إن الأستاذ كامل تغزل فيها بقصيدة ضمنها حبه وهيامه . . . وأسمعها الشاعر المدنف ما قاله ، فأخذت منه ما يعنيها وهو أن الشاعر كامل الشناوى قد أحبها . . . وأنه كتب اسمها فى سجل الخلود .

وكان إذ ذاك ، سنة ١٩٣٩ محرراً بجريدة الأهرام ، فما كان يفرغ من عمله فى المساء حتى يهرع إلى من أيقظت ليله . . . ويظل ساهراً فى الكباريه يشهدها ترقص ، ويدعوها إلى مائدته ، ويخرجان إلى هنا أو هناك .

وظلا عامين . . . تسقيه ويسقيها من خمر الهوى . . . وانغمسا فى حياة صاخبة حمراء ، وكان فى فترات الصحو يعاوده

النوم وتراوده الكبرياء ، ولكنها كانت لحظات قصيرة يتداوى منها بالتى كانت هى الداء . . . فينطلق فى جو اللهو ويغرق فيه . ويظل خلال العامين بين الإقدام والإحجام ، وبين الاستكانة والتمرد ، وفى نهايتهما يثور قائلا :

إلام يا قلب تشكو نقض الحبيب عهوده
دع الهوان وحطم أغلاله وقيوده
يا فتنتى لست عبداً ولا أطيق العبوده
ملكتنى غير نفس على الخطوب جليده
نفس من الكبر نشوى وفى الهوى عربيده !

ولكنه لم يستطع بعد هذه الثورة أن يخلع « روز » من قلبه . . . فقد كانت ثورة مسلحة بالإرادة والكبرياء ، ولكن لم تكن تسندها القوى الأخرى ، تبرمت « النفس الجليدة » بأغلال الحب وثارت على طغيانه ، ولكن الفؤاد الذى ملكته كان يحب الطغيان ويستكين إلى الأغلال .

ذهب عنها وحاول أن ينساها ، ولكنه يقول :

يا ورد « روز » لم يزل فى جونا أثر من نفحها . . . آه لو عادت لياليك

ذكرت بعدك أيامى التى ذهبت واشتقتها.. غير يوم خاننى فيك
يوم افترقنا على أن أراك غداً فلم أجد فى غد إلا تجافيك
لولا إبائى ولولا أننى رجل ... لحدثتنى الليالى كيف أبكيك!

وكان قد مهد لليوم الذى خانه فيها أو خانها فيه ، بالحديث إليها فى صراحة عن آلام نفسه ، حتى قال لها إنه سيتزوج من إحدى قريباته . . . فأبدت تقديرها لظروفه وباركت زواجه . . . فكان موقفها مشابهاً لموقف « غادة الكاميليا » عند ما جاءها والد حبيبها يرجوها أن تجافى ولده كى يبتعد عنها . . . فجافته فعلا عند ما عاد إليها .

وفى ذلك اليوم تركها على أن يلقاها غداً ، ولكنه لم يعد إليها . . . وراح يتمنى لو عادت لياليها .

إنه لا ينساها . . . لا ينسى تلك النفس الطيبة المعذبة ، ولا ينسى ما كان يلمس من آلامها واضطرارها إلى الكفاح من أجل أطفال تركهم أخوها المتوفى ، لا ينسى ما كانت تعبر به عن الألم لأنها مضطرة إلى أن تبتسم لكل إنسان . . . لا ينسى التى سقته كئوس الحب صافية مترعة ثم عربد عليها . . .

كان يذكر كل ذلك ، فيعاوده الشوق والحنين ، وكاد يطيع قلبه ويعود ، ولكنه جمع أطراف « شاعريته » وقال القصيدة التى يغنيها عبد الوهاب ، وفيها يقول :

زعمـوا حبى يا قلب خطايا ... لم يطهرها من الإثم بكايا
حسبنا ما كان فاهدأ ها هنا ... فى ضلوعى واحتبس خلف الحنايا
ذكريات حطمتنى ، ذكريات ... لم تدع من أجلى إلا بقايا
ذكريات رسفت فى أدمعى ... وشجونى وتمشت فى دمايا
كم يدنى النوم منها عجباً ... فتنة يقظى ، وروحاً ، وسجايا
ضمها صدرى ومست شعرها ... راحتى وارتشفتهـا شـفتايا
وعليهـا من ذراعى وثاق ... شـده شوقى وأرختـه يدايا
فإذا ما نفضت عينى الكرى ... لم أجد بين ذراعى سوايا
آه من نومى ومن صحوى ومن ... ساعة تعلن أو تخفى أسايا
آه منها أنا لم أدرك مداها ... آه منى هى لم تدرك مدايا
حطمتنى مثلما حطمتهـا ... فهى منى وأنا منهـا شظايا

وهذه القصيدة تعبير صادق عن آلام الشاعر فى هذا الحب ، وهى آلام ناشئة من العراك العنيف فى نفسه بين الهوى الذى يملكه من رأسه إلى قدمه ، وبين الوضع الاجتماعى ، بل المسلك الخلقى للحبيبة ، الذى ألجأتها الأقدار إليه . ولو أنه

كان ممن يطلبون الهوى الوقتى ويعبـُرون جسور الآلام إلى لذاتهم لهان عليه الأمر ، بل لما كان هناك أمر . . . ولكنه ينظر إلى أولئك العابرين اللاهين الذين تضطر هى إلى مصانعتهم ومجاراتهم . . . وينتظر أن تفرغ لتكون له كما يقضى الحب الآسر . . . كتب فى آخر ساعة سنة ١٩٤٧ تحت عنوان « الشمعة المطفأة » وقد تخيل صديقاً يحدثه ، وما الصديق إلا هو . . . قال :

« كنت أتوجس خيفة كلما رأيتها تتعرف بثرى أمثل . . . أو شاب جميل ، ولكنى كنت أعلل النفس بأن رشدها إن غاب يوماً فلن يغيب أبداً . وأقول إنها لن تنسى وكيف تنسى ؟ إنها إذا كانت لحناً فأنا الموسيقار ، وإذا كانت بيتاً من الشعر فأنا الشاعر . . . وإذا كانت صورة فأنا الرسام . كنت أعلم أن جمالها كبير وأن جمالى يكاد يكون مستحيلا ، فأنا رجل وهبنى الله شعوراً بالجمال ، وسلب الجمال شعوره بى ! ولكنها بالرغم من ذلك أحبتنى أو هكذا صارحتنى وصدقت ما صارحتنى به ، وانسقت فى طريق الحب ، لا أكاد أعمل شيئاً غير أن أحب ! »

وكامل الشناوى ، وإن كان الجمال قد عادى جسمه الضخم . إلا أن فيه جمالا آخر . . . فهو جميل العاطفة ودود

النظرة التى تدل على ما وراءها من نفس إنسانية طيبة أريحية ، وهو إلى هذا ظريف حاضر النكتة يجيد الدعابة لبق الحديث ، يضحك ملء جسمه . . . فيعدى الآخرين .

وهو شاعر حزين ، ولكنه كاتب مرح ، يضمن النكتة أكثر كتابته كما يرسلها فى مجالسه . هذا هو فى آخر ذلك المقال « الشمعة المطفأة » ينهى الفاجعة العاطفية بواحدة من نكاته ، فقد دار الحديث بينه وبينها ، وأنبها على سلوكها ، وأبدى لها جفوته ، وقالت له :

— ألا أزال فى قلبك « اللمبة » ذات الألف شمعة كما كنت تقول لى دائماً ؟

— إن « اللمبة » ذات الألف شمعة لا تزال كما هى فى مكانها ، وكل ما حدث أنها أطفئت .

ثم أقبل إلى الحفلة التى كانوا فيها ثلاثة من أصحاب الملايين فهرعت إليهم تستقبلهم وتجالسهم ويصفها معهم بأنها تبدى لكل منهم ما يجعله يظن أنها تحبه وحده . . . ثم يقول : « حقاً إنها أعجوبة هذا القرن » ويشير إلى رأسه . . . « وأعجوبة هذه القرون » ويشير إلى رؤوس المحبين الآخرين . . .

وهذا المقال « الشمعة المطفأة » يصور جواً من آلام هذا الحب الناشئة عن مسلك الحبيبة مع الرجال الآخرين . ففيه

مأساة نفسية تنظر شذراً وفى غير ارتياح إلى « نكتة القرون » فالجو عاطفى حار ولكن هذه النكتة أطفأته . . .

والشمعة انطفأت ولكنها لا تزال فى مكانها . . . ولا بأس بعد ذلك من استئناف المغامرات « الدون جوانية » . . . التقى فى الإسكندرية سنة ١٩٤٨ بفتاة حسناء فى العشرين من عمرها كانت مع زوجها الغنى المسن فى الفندق الذى نزل به . وصادق الزوجين ، وانتهز بعض الفرص فى انشغال الزوج ، وجعل يتنزه مع الفتاة على البلاج ويجالسها فى ردهة الفندق . . . وشكت إليه من حياتها مع الزوج العجوز ، وقالت إنها تتمنى موته . واستمر بينهما الحديث إلى أن قالت له :

— الآن أستطيع أن أبثك حبى !

— ماذا أسمع ؟ . . .

— اسمع . . . إنه حب عاطف جامح ، وحاولت أن أكتمه ، فركض فى ضلوعى وكاد يعصف بى !

— ماذا تقولين ؟ ما كنت أتصور هذا !

— اسمعنى إلى النهاية . . . إن زوجى ليس سهلا أو هيناً . . . إنه غيور ، غدار ، لو أنه عرف من أحبه لذبحه علناً ، ولهذا لم أجازف بإعلان حبى !

— بل جازفى . . . إن من تحبينه لا يبالى . . .

– إنه يقول ذلك فقط !

– بل إنه كذلك فعلا . . .

ولمحا الزوج مقبلا ، فأمسكا عن هذا الحديث . . . ولم ينم ليلته . وفى اليوم التالى بعد أن صحا من نومه أو من صحوه . . . وجدها جالسة مع شاب . ثم سألها عن ذلك الشاب فقالت :

– حسبتك تعرفه . . . فقد حدثتنى أمس عن شجاعته ، وقلت لى إن الذى تحبينه لا يبالى ؟ !

وأعتقد أن شعر كامل الشناوى أصدق من كتابته فى التعبير عن حقيقة نفسه . وأريد أن آخذ من هذا أنه حزين فى أعماق نفسه وإن كان فى ظاهر حياته مرحاً ضحوكاً . فهو عند ما يتهيأ للشعر يغفو شعوره الظاهر الضاحك ، فيتصل بشعوره الباطن الحزين . وهو فى ذلك مثل حافظ إبراهيم الذى كانت كل مجالسه ظرفاً ودعابة وكان نصف شعره رثاء . . .

ويهمنا من ذلك ما يتصل منه بالحب إذ يلوح لى أن حبه لروز وما لابسه من آلام ثم هجران ، قوى فيه طبيعة الأسى وبعث فى نفسه الشعور بالشقاء ، حتى جعل يتساءل عن حياته ومعنى وجوده وإلى أين تمضى به الأيام . . . احتفل

بيوم ميلاده مرحاً مع الأهل والأصدقاء ، ثم خلا إلى عقله الباطن فأوحى إليه أن يقول :

عـدت يا يوم مولدى عدت يا أيهـا الشقى
الصبا ضاع من يدى وغزا الشيب مفـرقى
ليـت يا يوم مولدى كنت يوماً بلا غد
ليـت أنى من الأزل لم أعش هـذه الحياه
عشت فيهـا ولم أزل جاهلا أنهـا حيـاه
ليـت أنى من الأزل كنت طيناً ولم أزل
أنا عمر بلا شـباب وحيـاة بلا ربيع
أشترى الحب بالعذاب أشـتريه فمن يبيع
أنا عمر بلا شـباب أنا وهم أنا سـراب

ولو أنه أحب واحدة غير روز مثل الحب الذى أحبه إياها ، واحدة لا ينازعه فى حبها إباء ولا كبرياء ، لتزوجها وأنجب منها بنين وبنات وعاش معهم فى التبات والنبات ، لا يتركون له فراغاً يتمنى فيه أن لم يكن ، أو يشكو الدهر ويسائله أين يمضى به . . . كانوا يحققون وجوده فى شعوره فلا يتوهم أنه سراب . . .

وراح المحب الهاجر يقسر نفسه على البعد ، ويا ويل قلبه

العذاب ... إنه يمعن فى البعد عنها ولكنه يجدها فى الحنايا » أينما سار ... يقول لنفسه فى حزم « تعلم كيف تكره » ولكنه لا يتعلم ...

كتب فى « آخر ساعة » سنة ١٩٤٨ يدعو إلى « الكراهية » ويحاول أن يدلل على أنها توحى بالفن كما يوحى به الحب ، فقال : « أنا منذ اليوم أكره ، وستكون كراهيتى فناً جميلا ... جميلا مثل عينيها ، مثل شفتيها ... مثل شبابها الحاد ... وقوامها المرهف ! كلا لم تعد جميلة ! وليس صحيحاً ما تدعيه عيناها وشفتاها وشبابها الحاد وقوامها المرهف ! »

وما أراه إلا مدلـِّـها — ولو فى باطنه — بعينيها وشفتيها وشبابها الحاد وقوامها المرهف ... هل تصدق روميو إذا وقف تحت نافذة جولييت ليناجيها قائلا : أنا أكرهك يا حبيبتى ؟ !

ويقول شاعرنا كامل الشناوى :

لا وعينيك ... ياحبيبة روحى لم أعد فيك هائماً فاستريحى
والفؤاد الذى سكنت الحنايا منه ... أودعته مهب الريح

ثم نتبين فى آخر القصيدة أنه لا يحلف بعينيها وإنما يتغزل فيهما ، وأنه لا يزال هائماً ... إلخ ، فيقول :

لا وعينيك ... ماسلوتك عمرى فاستريحى وحاذرى أن تريحى

وحاول صاحبنا أن ينسى الحب بالحب ، ويفل الحبيب بحبيب آخر . . . وأغرق فى الحب الجديد إلى حد نية الزواج . . . وكتب عن ذلك أخيراً فى « الأخبار » : « لقد حاولت الزواج مرة واحدة . . . وخيل لى فى فترة المحاولة أنى أركب طائرة حلقت بى فى الجو ووقفت كل محركاتها ، وكنت أتلفت يميناً وشمالا أبحث عن البراشوت لأفتحه وأهبط به إلى الأرض فى سلام ! وهبطت إلى الأرض فعلا . . . »

لقد توقفت المحركات لأن روز التى قطع ما بينه وبينها ، كانت فى الحنايا . . .

وهو يضحك ملء جسمه الممتلئ ، يضفى على من معه مرحاً وظرفاً ، يريد أن ينسى ، ولكن الضحك يذهب فى الهواء والمجلس ينفض ، وروز وحدها ، روز التى قضى على نفسه بالحرمان من قربها إلى الأبد ، روز فى الحنايا . . .